محمد جميل الحطاب

العيـون

في الشعر العربي

دار الحوار

العيـون في الشعر العربي

* العيون في الشعر العربي

* تأليف: محمد جميل الحطاب

* الطبعة الأولى 1999

* الناشر : دار الحـوار للنشر والتوزيع

سورية ـ اللاذقية ـ ص. ب 1018 ـ هاتف 422339

إهــداء

إلى العيون المحبة الجميلة

التي كنت بنورها أكثر رؤية

وبوحيها أبعد إلهاماً

تقديم

د. علي عقلة عرسان

ما الذي يتبادر إلى الذهن أولاً عندما تُذكر العين؟ أهي الرؤية بنعمها وصفاتها ومواصفاتها ووظائفها ومايتتج عن ذلك كله من خير وشر؟! أم الجمال الخاص، والعام بمقاييسه ومقوماته وقيمه، وماتضيفه البصيرة إلى البصر ومايحمله البصر من البصيرة، عندما تكون العين لسان القلب ونافذة الروح أو منفذاً لها، تحمل مكنون القلب الذي يطفر مع أشعتها ويستشف بواسطتها مافيه، وتسل مافي النفس إن خيراً وإن شراً، إن ضعفاً وإن قوة؟! وما الذي في هذه الحاسة مما يبقى بحكم فيزياء الجسد وما الذي يصبح منها جزءاً من كيمياء الروح لايتحكم به الجسد؟! أسئلة في سؤال طرحته على نفسي عندما تناولت بيدي مخطوط هذا الكتاب قبل أن أقرأ فيه حرفاً. وعندما انتهيت من قراءته لم يبق في نفسي ظلال لسؤال الأسئلة؛ فقد طاف

المؤلف بي في جولة واسعة امتدت من عرض أفكار لفلاسفة علم الجمال فيما يتعلق بالجميل وصفاته والجمال ومقوماته، ومايتصل من ذلك بالحكم عليه وبتذوقه، إلى مايثير في النفس كوامن الشوق عندما يعرض عليها منخول الشعر، فيثير فيها رسيس الحب، ونزوعاً إلى الجمال المغشى بألوان من الانفعال والصبو والصباء، مما لايمكن مجاوزته مع بقاء التوازن والاتزان في مواقعهما المعهودة.

في هذا الكتاب (العيون في الشعر العربي) للأستاذ محمد جميل الحطاب استعراض لما يتصل بالعيون في نسقين عامين:

* نسق الجميل خلقاً وشكلاً وتشكلاً مادياً مما تتوافر فيه أعمدة الجمال وفروعه وتفاصيله ومايضاف إلى ذلك من ملح الجمال، يزكو به ويشتد وقعه في النفس، من مشتقات الروح والطبع والتطبع، تلك التي تضفي على الشكل الجميل روحاً يبقى من دونه تمثالاً حجرياً جميلاً، من حلاوة وملاحة وحيوية تبعث الجمال إعصاراً يزوبع الأعماق، ويعوم كل

مافيها قبل أن يستقر بها على صيغة ما من الشجو والشدو والاستساغة والتسويغ القبول والرفض.

* ونسق الجميل إبداعاً واتساقاً وقيمة معنوية وروحاً مبثوثاً في صور الإبداع الفني والأدبي والفكري، مما يجعل الوعي المعرفي في نفس يعيد تكوين المعطيات في صور جمالية مستساغة، أو يعيد النظر بمقاييس الجمال ومعاييره على نحو يسمح بإعادة نظر بما استقر عليه الذوق من حال مع الجمال ومعاييره وآثاره وتأثيره.

وما استعرضه المؤلف بتركيز هو مما يندرج في النسق الثاني، وماجاء في هذا النسق لاتقف في وجهه حدود، وربما كان من طبيعة الإبداع أنه يتجاوز المألوف والمحدَّد والمقيَّد، ويسبح في بحر بلا ضفاف، ويغوص في أعماق، ليخرج بدرر قد لاتخطر على بال؛ ولذا فإن ماجاء في هذا النسق الذي يشكل قوام الكتاب غني ومفيد وجذّاب، ففضلاً عن جنيه لأجود ثمار الإبداع وأشهاها من مظانّها البعيدة عن متناول من لايبذل جهداً

متميزاً في البحث، فإنه لم يدع حديقة من حدائق شعر العرب: قديمه وحديثه إلّا وقطف منها ثمرة وحمل منها غصناً؛ ولكنّ ما علق ببرده وسلاله من ورد الحدائق وعطرها يغري بتلفّت القلب من بعد شم أو نظر؛ لأن ماحمله من فاغم العطر وشهي الثمر ومترف الورد لايترك النفس من دون أن يغريها باتباعه، ولايترك الذاكرة التي يطرق بابها من دون أن يفتح نوافذ الماضي لها ويستثير مكنوناته. فالشعر الذي قدم سحر العيون وتاريخ العشق وارتعاش المشاعر، وأشار إلى الجمال باجتهاد، من خلال قطوف الإبداع جاء مؤكداً نجاح البحث ودالاً على ذوق وتتبع وبذل جهد لايستهان به؛ وهذا يستحق ذكراً وتقديراً.

ولم يبخل الباحث بجهد في تقصي المعرفة حول مواضيع تتصل بالبصر أو بالبصيرة لاستكمال بحثه، كما أنّه عرج على أبواب أخرى في مجال المعرفة المتصل بالعين لغة ومدلولاً ودقة وصف وهوامش دلالية، تعطي لما قد يظن أنه مترادفات حق الحضور عند الاستخدام العلمي الدقيق للكلمات، حق الحضور في لغة ومعرفة من يريد أن يتعامل مع

اللغة بعلم ودقة معرفة. ومما أشار إليه أبواب تتصل بما قيل إنه فعل العين من نظرات تحمل شراً كالحسد القتّال والنظرة التي تئد الفؤاد في الرماد.

إنه كتاب يستحق القراءة، وجهد باحث يستحق الاهتمام، وموضوع يستحق الاستكمال، إذ لايبلغ الكمال إلا من هو الكمال بعينه؛ فتحية للباحث مع أطيب التمنيات.

الدكتور علي عقلة عرسان

استهلال

العين مرآة النفس، ومفتاح شخصية الإنسان، ومجتمع قواه، ومعانيه المختلفة. فيها يتجلّى الحب، والبغض، والعداوة والصداقة، والرحمة، والقسوة، والذكاء والغباوة، والقوة، والضعف، والحزن، والسرور، والصحة والمرض، والأمر والنهي، والهدوء والقلق. العين ترجمان الضمير، كوة على المدى، باب إلى التعرف، مصدر للجمال.

وجد فيها الملهمون عالم أسرار، وجمالات، واستيحاء، وقابل بها المحبّون من أحبُّوا بقولهم: «أنت عيني»، وأقسم بها الواثقون «وحياة عينيك» وقرنها المغنّون بالليل فأكثروا من ترديد «ياعيني ياليل»[1].

العين والقلب جناحان للحياة. هذه ترى الوجود على سطحه، وذلك يرى الكون في أبعاده وأعماقه، ولذلك سميَت عين الوجه باصرة، وسمّيت عين القلب بصيرة. العين أمُّ الحواس لاتقوَّم المقدّرات إلّا بعد أن تمرّ على ميزانها أولاً.

اللّه عرف بالعين في تجلّيه فقيل في حقّه، حضور، شهود، تجلّ.

شكّ اليونان ثمّ آمنوا بآلهه رأوها، وحار بنو القدس، واستلانوا لإله تجسّد في طفل من الناصرة، ثمّ رآه القديس توما فكانت الرؤيا إيماناً،

(1) ـ العين في الشعر العربي. د. علي شلق الصفحات (5 ـ 8)

ونفى عنه الإسلام الصلب فمثّله لعين العقل مرتفعاً إلى اللّه.

حتى سيّدنا موسى كلّم اللّه عزّ وجل فصاح «ربّ أرني أنظر إليك» فالعلم لايصير علماً إلّا إذا أقرّته العين.

العين تتناول الشكل، الجو، الوضع، ومايوحي به كلّ ذلك. فهي صورة عن المطلق الذي يحتضن الكون بعين رعايته مثلما هي باب كلّ واقعي مرئي.

العين أداة البصر، وأرقى الحواس الخمس. وهي مع ملحقاتها الحاجب والجفون، والجهاز الدمعي أغلى شيء يملكه الإنسان في دنياه، لأنها الصلة بينه وبين عالم الضياء والنور. هي وعاء سحري رائع تنطوي فيه صورة الأرض والسماء. لحاظها سهام تصيب جوارح، وتذكي قرائح. هي ينبوع الوعي والجمال يعجب الشاعر بظاهرها وتفتنه لحظاتها وغمزاتها، ويتخيّل مافي أعماقها من أسرار حسب إحساساته ووجدانه، ويصفها بمقدار مافي شاعريته من ضعف أو قوة. هي أجمل قطعة فنية وصفها اللّه في خلقه وجعلها فتنة للناس «وزوّجناهم بحور عين».

ولقد كان الشعراء العرب يبدعون في ابتكار المعاني، وصياغة الألفاظ، ويقدّمون لأجيالهم وللأجيال اللاحقة تراثاً رائعاً في وصف العيون.

يثيرون المشاعر، والأحاسيس الحلوة؛ فيرى المرء العيون بعين الخيال تسمو، وتتعالى بالجمال. ومن الحقائق المعروفة أنَّ تذوُّقنا للعمل الفني يعتمد أساساً على حاسة البصر التي يمكن أن تثير حواس أخرى كالسمع والشم والذوق...

وكما يذهب بعض الشعراء - مثال رامبو - إلى أنَّ للكلمات كيمياء خاصة بها، وأن الكلمة يمكن أن توحي بالصورة والإيقاع، والملمس والطعم، واللون، والرائحة.

وكذلك يرى بعض المصورين أننا حين تمسح أعيننا صورة ما لانرى ألواناً وخطوطاً فقط؛ بل نشم رائحة، ونسمع أصواتاً تتفاعل في بوتقة الخلق لتصبح طاقة من الانفعال الذي يحدّد لنا بدوره إيقاعاً، ونغماً نتبعه بأعيننا على السطح المرسوم.

وقد كتب المؤرخون عن عيون الملكة زنوبيا فقالوا: إنّها أسهمت في إقامة علاقات خاصة بين الصحراء والقمر.

من أجل هذا كلّه كان الدافع إلى كتابة هذا البحث، والغوص في كنوز التراث العربي على فرائد من الأدب الخالص في وصف العيون، وأفعالها، وتأثيراتها، وإيحاءاتها. فتجمّع لديَّ شعر كثير رتَّبته، وعرضته في هذه الدراسة الانطباعية التأثرية التي تعتمد على التأثر الذاتي، والتذوُّق الفني والاطلاع الواسع على مأثور الأدب، والبحث عن القيم الشعورية والتعبيرية للعمل الفني.

وقد قسّمت الكتاب إلى عدة فصول. حاولت فيها أولاً أن أعرض باختصار آراء الفلاسفة عبر العصور، في الجمال وفلسفته والفرق بين الجميل والحسن ومفهوم الجميل في كتب اللغة العربية.

وانتقلت بعد ذلك إلى الحديث عن ثقافة العين، وأنواع النظر. ومحاسن العين، وأوصافها، وما قاله الشعراء فيها منذ العصر الجاهلي وحتى العصر الحديث دون مراعاة للتسلسل الزمني بشكل دقيق.

كما تحدّثت عن معايب العين وسلبياتها.

وفي نهاية البحث قمت بجولة فنية في آفاق العين الواسعة متابعاً ظاهرة اهتمام الشعراء العرب بالعيون وتنويعاتهم الجميلة في وصف أفعالها وتأثيراتها لأصل إلى نتيجة توضّح خصائص الذوق الجمالي عند العرب، وتطوّره عبر العصور استجابة لحاجات جمالية ولّدتها أنماط المعيشة وتغيرات الظروف الاجتماعية والثقافية والاقتصادية.

وإذا كانت هذه الدراسة محاولة لفهم تجلّيات الشعراء المتنوعة جداً فلا أدّعي أنني بلغت بها الغاية المرجوة، فربما عرفت شيئاً وغابت عني أشياء. وجلّ ما أرجوه أن تكون وسيلة يستطيع بها الراغبون في البحث أن يركّزوا على هذه الظاهرة ويغنوها بمزيد من التقصّي والتحليل.

والله ولي التوفيق

المؤلف

اللاذقية في ١٩٩٩/٢/٢

الفصل الأول

- مدخل إلى معرفة الجميل
- الجميل في كتب اللغة
- بين الجميل والحسن

مدخل إلى معرفة الجميل

لم يحظَ علم الجمال في عصر من العصور بمثل حاله في حضارة اليوم من مكانةٍ وأهميةٍ. فبعد أن كان فرعاً من فروع الفلسفة غايته البحث في الجمال عامة، وفي الإحساس الذي يتولّد في النفس من خلاله. أصبح يتّجه لأن يكون علماً من العلوم الوضعية، له أسسه المستقلة، وطرائقه، ومنهجيته. يقول بول فاليري: (نشأ علم الجمال يوم تفتّح حس الفيلسوف للملاحظة، وقلبه للشوق). إنَّ الشعور بالجمال وتذوُّقه راسخان في الإنسان لايتوقفان عن تغذية وعيه. وبحث الإنسان عن الجمال كما يقول «جيلسون»[1] موضوع رغبة وحب، رغبة في أن يحقّق ذاته في عالم مؤنسنٍ متناسق، وحب أن يرى نفسه فاعلاً مبدعاً بمعرفة قوانينه، ونظام حركته وتطوُّره.

إنَّ الفلسفة الأفلاطونية تُعدُّ أصلاً لجذور كلِّ علم للجمال.

فالفيلسوف اليوناني «أفلاطون» يتصوَّر في عالم الأفكار جمالاً مطلقاً لايدرك بالبصر أو السمع، ونحن باسمه نحكم على هذه الأنواع غير الكاملة من الجمال في هذه الحياة الدنيا، لأننا ورثنا الذكرى المهمة لهذا المثال من حياة سابقة عشناها في محفل الآلهة.

(1) - جيلسون GILSON .E: مدخل إلى فنون الجميل - باريس 1963 ص5.

إنَّ ماهية الجمال توجد في النموذج في مثال الجمال الخالد الذي يضيء عالم الجمال كما تضيء الشمس العالم الأرضي. الجمال في ذاته مثال مطلق غير محسوس لايمكن أن يسبقه مثال آخر أو أن يأتي بعده. ولكنه وحده الجدير بأن يسعى المرء إلى الاقتراب منه[1].

الجمال في ذاته هو الله عينه كما تشرح لنا نظريات الزهد في المأدبة[2].

إنَّ عشق جسد جميل يؤدي إلى عشق النفوس الصالحة ومن ثم الأفكار، وأخيراً القدرة الإلهية نفسها. وبعد فإنَّ منبع كلِّ جمال هو جمال أول ينفث، بمجرد وجوده، الجمال في كلِّ الأشياء التي نسمّيها جميلة كما جاء في فيدون[3]. ويرى «سقراط» أنَّ الجميل يصير جميلاً بالجمال. حيث يقول في محاورة «فايدوس» إننا بعد أن هبطنا إلى هذا العالم عرفنا الجمال معرفة أوضح من معرفتنا لسائر الحقائق بواسطة أكثر حواسنا نوراً بواسطة البصر أدق أعضاء الجسم. وصار الجمال يشترك في كونه أكثر الأشياء وضوحاً، كما أنَّه أجدرها بالحب. غير أنَّ الإنسان يسعى طول حياته إلى الاتحاد بهذا الجمال غير المتجسّد، غير المادي. إنَّ البحث عن الجمال هو رغبة في الخلود، ونوع من إرادة التطهير التي تبعث في الإنسان الحب والغبطة.

---

(1) ـ دنيس هويسمان ـ علم الجمال «الاستطيقا» ص19.

(2) ـ حوار لأفلاطون حول الحب ينطلق من الجمال الجسدي، فالجمال الروحي، فالجمال الكامل الأبدي.

(3) ـ حوار لأفلاطون فيه آخر لحظات سقراط وآخر آرائه لتلاميذه قبل مقتله.

أمّا أفلوطين (205 ـ 270) فيعرّف الجمال بالوحدة وبالصورة الخالصة، والترتيب. فالجمال في الموجودات هو تماثلها وانتظامها؛ ذلك لأنّ الحياة صورة، والصورة جمال.

ويرى الدارسون أنّ المعرفة الجمالية لاتقتصر على معرفة الأشياء كما هي وفق مبادئ المعرفة العامة؛ إنّما تفرض وجود ماهية جمالية تعبّر عن الموجود، وعن صفته الجمالية المولّدة للشعور الجمالي الذي ندرك الموجود بموجبه.

ويتّفق المثاليون على أنّ الجميل ينتمي إلى العالم الروحي الأمثل لكنّهم يختلفون على المنبع حيث تؤكّد المثالية الموضوعية أنّ الجميل ذو طبيعة متكاملة مستقلة عن ذات الإنسان الذي يقتصر دوره على التأمل وحسب؛ لأنّ الجميل يفرض موضوعاً على العقل، وهو روحي بطبيعته.

إنه بكلمة واحدة «مطلق»[1]. ولاتبتعد الفكرة الدينية عن هذه النظرة؛ إذ تقوم على العلاقة الثنائية (الله ـ المخلوقات) فالله يخلق الأشياء الجميلة التي تتمتّع بوجود مستقل وسامٍ وموضوعي في الله الخالق الأوحد.

أمّا المثاليون الذاتيون فيؤكّدون أنّ الذات الإنسانية هي المنبع الخالص للجمال، ويلخّصون فكرتهم الأم بأنّ أية ظاهرة في العالم إنما تكتسب قيمتها، وحقيقة وجودها من خلال وعي الإنسان. فالوعي وحده هو القادر على خلق القيم الجمالية وتقديرها. والذات مصدر التقويمات كلّها. وهكذا لايصدر الجميل الذي نتحدث عنه إلّا عنا ولايوجد إلّا

(1) ـ أفلاطون ـ المأدبة، باريس 1964 ص72.

فينا، ومن أجلنا[1].

وينطلق «أولانييه» من مبدأ مثالي ذاتي يتعلق بطبيعة الجمال الحسية التي تؤثر في عاطفة الإنسان، وتؤكّد فيه الشعور الجمالي فلا يمكن أن يكون الجميل مدركاً، ولامتذوقاً إلّا من خلال الحواس ولاسيما السمع والبصر.

ويرى الفيلسوف «كنت» أنَّ الجمال الطبيعي شيء، والجمال الفني تمثيل جميل لشيء ما؛ لشيء ليس جميلاً بصورة ضرورية طبقاً لجمال آخر في الطبيعة؛ إذ من الممكن أن نجعل القبح الطبيعي جمالاً فنياً.

فجمال الشيء لايتوقف على طبيعته بل على حرية الإدراك والتخيل؛ تلك العملية تتمُّ لدى أي ناظر فيما إذا وقع بصره على هذا الشيء مهما كانت طبيعته، خارجاً عن هذا الناظر.

هذا التقابل بين الشخص المفكّر، وبين الشيء المفكّر فيه هو عرض خاطئٌ للمشكلة الجمالية. والعرض الحقيقي ليس أمر فصل هذين العاملين بعضهما عن بعض؛ وإنّما هو تعاونهما.

فلا إبصار بدون شبكة عينية؛ ولكن مع وجود الشبكة لاإبصار بدون شعاع ضوئي.

وجمال نغم حلوٍ، أو قبح لحنٍ متنافرٍ يتوقّفان بعض الشيء عليَّ وعلى انفعالي الشخصي؛ ولكنّي مرتبطٌ بهما أيضاً ماداما يجعلانني أهتزُّ نفسياً وجسمياً.

---

(1) ـ شارل لالو ـ مفاهيم علم الجمال ـ باريس 1952 ص2

وقد ظنَّ كثير من المشرّعين في علم الجمال أنّ عواطفنا تصبح أجمل كلّما كشفت عن الجوهر العميق للأشياء أكثر مما تفعله الطبيعة التي لاتقدّم لنا سوى مظاهر سطحية، أو مايفعله العلم الذي لايُبرز سوى تجريدات اصطناعية[1].

وفي رأي «كنت» هناك أربع قضايا تحدِّد الجمال[2].

1 ـ الذوق: هو ملكة الحكم على شيء، وعلى طريقة تعبير متجردة سواء بالرضى أو بالرفض. ويكون جميلاً مايعبِّر بالرضى.

2 ـ يكون جميلاً مايكون موضوع إعجاب؛ فالجميل يعجب دون مفهوم. أي دون اللجوء إلى منطق ضيِّق. يعني دون الحاجة إلى إثبات الجمال بحجة.

3 ـ الجمال هو شكل القصدية في الشيء الجميل. وإذا كان النافع يوحي بالهدف أو بالاستعمال فإنَّ الجميل على العكس لايوحي بعلة وجوده، بل يوحي بارتباط داخلي ضمن تكوين الأثر.

4 ـ يكون جميلاً مايكون معروفاً هكذا دون مفهوم معين على أنه اكتفاء ضروري. إذاً فالجميل هو ماكان أبداً حائزاً على رضى شامل كافٍ ضروري.

ومن صفات الجمال التي حلّلها الفيلسوف «كنت» في كتابه «نقد الحكم»[3] أنه موضوع إمتاع نزيه خالص. ويتضح معنى ذلك عند التفريق بين الشيء الجميل، والشيء الشهي، أو اللذيذ، وبينه وبين

---

(1) ـ شارل لالو ـ مبادئ علم الجمال ـ الصفحات 22 ـ 39.

(2) ـ أندريه ريشار ـ النقد الجمالي ـ ترجمة هنري زغيب ص210.

(3) ـ د. عبد الكريم اليافي ـ دراسات فنية في الأدب العربي ـ الصفحات (66 ـ 67).

الشيء الجيد، أو النافع؛ فقد نحكم على شيء فنقول: شهي، أو لذيذ إذا أمكن أن يجلب لذة وسروراً. وقد نحكم عليه فنقول: جيد، أو نافع إذا استطاع أن يسدَّ عوزاً، أو يقضي حاجة.

ولكننا في حكمينا إنما نصدر عن مطمع؛ فليس كلا الحكمين نزيهاً؛ لأنَّ اللذيذ والنافع يلائمان رغباتنا، ويرضيان ميولنا. بيد أن الحكم الصادر عن الذوق الفني خالٍ من هذه الشوائب، حاصل في حالة تأمل محض.

وقد أشار «كنت» في معرض تحليله للجمال وصفاته، إلى أنه يتعيَّن بالتناسب القائم بلا هدف أو بحسب تعبيره «هو غائية تلمح في الشيء الجميل دون تصور أي غاية».

وتحسن الإشارة إلى أنَّ هذا القول يشكِّل قالباً جديداً تلوح منه الفكرة القديمة الزاعمة أنَّ الجمال هو الوحدة التي تلمح من خلال الكثرة، أو الكمال الملموح لمحاً مبهماً.

يقول ليبنتز «إنَّ الجمال تصوُّر مبهم للكمال».

أما الفيلسوف الألماني «هيغل» الذي تزخر مؤلفاته في علم الجمال بثروة لاينفد معينها فيرى أنَّ العقل وحده هو القابل للحقيقة. وكل ماهو جميل يجب أن يكون حقاً وصدقاً جميلاً. الخير الكلي حق كلي وبالتالي جمال كلي.

وعندما نقول: إن الجمال فكرة نقصد بذلك أن الجمال والحقيقة شيءٌ، فالجميل لابدَّ بالفعل أن يكون حقيقياً في ذاته. والفكرة بالفعل حقيقية لأنها متصوَّرة في الفكر بصفتها هذه بمقتضى طبيعتها، ومن

وجهة نظر شموليتها؛ غير أن المفروض بالفكرة أن تحقق نفسها خارجياً، وأن تحوز وجوداً محدَّداً من حيث هي موضوعية طبيعية، وروحية.

وبقدر مايبقى المفهوم غير قابل للانفصال عن تظاهره الخارجي فإنَّ الفكرة لاتكون حقيقية فحسب بل جميلة كذلك. على هذا النحو يتحدَّد الجميل بأنه التجلي المحسوس للفكرة. فالجمال هو مايميز الهيئة بعينها سواء في حالة السكون أم الحركة بصرف النظر عن تكيف هذه الحالات مع تلبية الحاجات، وبصرف النظر عما يمكن أن يكون في الحركات نفسها من جانب مؤقت، وعارض. غير أنَّ الجمال لايمكن لغير الشكل أن يعبِّر عنه؛ لأنَّ الشكل هو وحده التظاهر الخارجي الذي بواسطته نضع مثالية الكائن الحي تحت متناول حواسنا، وتأملنا الحسيين.

ويذهب «هيغل»[1] إلى أنَّ الفن إذا بلغ غايته القصوى فإنه يشترك مع الدين، والحياة في تفسير الإلهي، وإيضاحه. وكذلك بالنسبة لأكثر المطالب الإنسانية عمقاً، وأشد حقائق الروح اتساعاً[2]. أما الصوفيون فيفضلون الموقف السلبي القائل بعدم جود منهج لعلم الجمال، ويذهبون إلى أن العقل وحده لايكفي لتفهم الجمال؛ بل لابد أن نقف خارجاً عن هذا العقل في حالة من الانجذاب للكشف عن حقائق غير حسية.

وباسم منهج جمالي علمي ينص المبدأ الأساسي للجمالية الماركسية على وجوب معاملة الفن كأيديولوجيا، وعلى تشديد اللهجة على الطابع الطبقي للفن؛ لأن هناك رابطة محددة بين الفن والشروط المادية (مجمل علاقات الإنتاج).

---

(1) ـ هيغل ـ فكرة الجمال ـ ترجمة جورج طرابيشي الصفحات 33 ـ 51.

(2) ـ دنيس هويسمان ـ علم الجمال ص45.

فالعمل الفني يحقق وحدة متناغمة بين الشكل، والمضمون. لكنَّ المضمون بحسب هذا المنهج هو الذي يحدِّد الشكل؛ لأن لكل تشكيلة اقتصادية للمجتمع شكلاً فنياً يتطابق معها، ويعبِّر عنها بهذه الصورة أو تلك. فالممارسة التاريخية الاجتماعية هي التي ولَّدت في رأي ماركس (أذناً موسيقية وعيناً حساسة لجمال الأشكال، أي أن الجميل لايكون خارج الواقع المحسوس).

ويرى «هربرت ماركوز»[1] في كتابه «البعد الجمالي» أنَّ علم الجمال ذاتي، وموضوعي في آن واحد. فالجمال الذي نتحدَّث عنه هو فينا وبنا ومن أجلنا. والأشياء لاتتصف بالجمال أو القبح إلا من خلال تصوُّرنا لها، وتفهمنا إياها. فهي ماهي عليه، وكل نعت خارجي عنها لايأتيها إلا منا. وهكذا فإن مغيب الشمس يثير في الرجل العامي فكرة العشاء، ويثير في العالم فكرة تحليل الضوء. وليس مغيب الشمس جميلاً إلَّا عند الذي ينظر إليه بعيني فنان وهو مأخوذ داخلياً بتأمله.

أما الناقد «جيروم ستولينتز» فيشير في كتابه «النقد الفني» أثناء مناقشته فكرة الجمال إلى أنَّ الوجه الجميل والمتناظر الشكل يمكن أن يكون بارداً، أو عديم التعبير. فالمدلول الروحي يجب أن يتجسَّد من خلال ماهو أساسي وجوهري فيه. يبث الحياة في التظاهر الخارجي من أوله إلى آخره الروح المتجسدة في الواقع الفعال.

إنَّ إدراك الجميل في الفن لايتم دون الأخذ بعين الاعتبار طابعي الإبداع الفني «الأسلوب والمضمون». إذاً الفن جميل دوماً. وربما فسَّر

(1) ـ هربرت ماركوز ـ النقد الجمالي ـ ترجمة جورج طرابيشي ص13.

لنا ذلك سبب إطلاق مصطلح الفنون الجميلة الذي يبدو وكأنه مؤسَّس ميدانياً على هذا التقويم الجمالي[1].

فالفن يخطب إعجاب المتذوقين؛ ليس لأنه يصور موضوعات جذابة أو جميلة فحسب إنما لأنه يحقق من جانب آخر «الإغراء مع القبح، والسحر مع المقرف».

وهذا لايعني أنَّ الفن يجمّل قبح الواقع؛ وإنما يصوِّره بتعبير جميل. وهذه نقطة دقيقة يجب توكيدها. فمزية الفن هي: أنه يجعل ظواهر الواقع أكثر بروزاً دون تغيير قيمتها الجمالية. وهكذا فإنَّ الوصف البليغ «لأحدب نوتردام» لـ «لهيغو» لايجمّل هذه الشخصية بل على العكس يعبِّر قصدياً عن قبحها.

ولو تساءلنا عن الجهاز الذي تتبدَّى فيه النفس من حيث هي نفس لذهب بنا الفكر حالاً إلى العين؛ ففي العين تتركَّز النفس؛ لأنها لاتبصر عبر العين فحسب؛ بل من هذه الأخيرة يمكن أيضاً إبصارها.

إنَّ مهمة الفن هو العمل على أن يغدو الظاهراتي في مختلف نقاط سطحه هو العين، مقر النفس، كاشفة الروح. ولعلنا نذكر البيتين الشعريين المشهورين اللذين يناجي فيهما «أفلاطون» النجمة ASTER بالقول:

حين تنظرين إلى النجوم، وانجمتاه.

أودُّ لو كنت أنا السماء ذات المئة عين، لأتأملك من عالي سمائي.

(1) ـ ستولنتيز ـ النقد الفني ص287.

ولعله في مقدورنا لو قبلنا المعنى أن نقول: إن الفن يجعل من كل وجه من وجوهه «أرغسا»[1] له ألف عين من أجل أن تتبدّى النفس والروح في جميع نقاط الظاهراتية[2]. ولعلّ من فوائد هذه الدراسة أنها ستحرّرنا من أثقال قضية النسبية الجمالية. وإذا كان سيتاح لنا أن نتحسس الوجود الحقيقي لتبدُّل الذوق عبر العصور فإننا سنجد تفسير ذلك في وظائف الفن التي تبيِّن أنَّ التغيير الحادث في ذوق جماعة بشرية يتوافق مع حاجة جمالية جديدة عند هذه الجماعة. وهذه الحاجة الجمالية تأتي مباشرة بعد الحاجات الانتفاعية كالمأكل والمسكن عند بعض المجتمعات البشرية.

إن الدوافع الجمالية قد تكون مختلفة وكثيرة. ومن أبرزها[3].

1 ـ إننا بحاجة إلى شيء من معايشة الفن؛ لأننا بحاجة إلى أن نجعل حياتنا على قدر من الجمال والنبل.

2 ـ عندما تطبق علينا الهموم من كل جانب يحق لنا أن نفرّ منها إلى خلوة حميمة مع الفن بأنواعه.

3 ـ وقد نلجأ إلى الفن أحياناً لإقامة علاقات بيننا وبين الآخرين؛ لأنها تتيح لنا اكتشاف مسالك في حياة الناس.

4 ـ وأحياناً نشعر بجوع وعطش إلى الأحاسيس الملتهبة. وهو شعور أقرب مايكون بالطبع إلى فكرة التطهير النفسي.

(1) ـ «أرغس» أمير من أمراء مدينة «أرغوس» تقول الأسطورة: إنه كان له مئة عين وإن خمسين منها تبقى مفتوحة على الدوام.

(2) جيروم ستولنتز ـ النقد الفني ترجمة د. فؤاد زكريا ص425.

(3) ـ اتيان سوريو ـ الجمالية عبر العصور ـ ترجمة د. ميشال عاصي ـ الصفحات 20 ـ 21.

5 ـ وقد نجد أنفسنا مدفوعين إلى البحث عن مشاعر غريبة من شأنها أن تفتح لنا أبواب كنوز عاطفية فيها من صفاء الجوهر، وخصائص السمو والعظمة مايجعلها تشيع في داخلنا خلال فترة معينة كل مانودٌّ أن نراه ممتزجاً بلحمة وجودنا وسداه.

هناك من يرى أن المنفعة هي أساس التقدير الجمالي، وأننا نحكم على الشيء بأنه جميل لأنه نافع وهذا الرأي لايقوم على أساس صحيح.

وهناك مدرسة ثانية ترى أنه يجب التمييز بين صفة الجمال وبين المنفعة.

فقد يكون الشيء غير نافع ومع ذلك جميل كالعشب السام مثلاً والحية الرقطاء، تقول: إنه جلد جميل ومع ذلك فإن الحية ذاتها ضارة.

ونحن في الواقع لانصف الفن الجميل بالصواب والخطأ وكل مايمكن وصفه به من هذه الناحية هو أنه سلوك، أو تعبير صادر من ناحية الفنان.

ولهذا فإننا يجب أن نؤكِّد بطريقة حاسمة الفصل بين القيمة الجمالية والأخلاق.

ثمة شعور بالجمال وثمة حكم بشعور الفرد أو إحساسه بهذا الجمال سواء كان الحكم تحليلياً أم تركيبياً.

ولكنَّ الحكم هنا يختلف عن الحكم الأخلاقي كما يختلف عن الحكم المنطقي.

فبينما نجد الحكم الأخلاقي يتخذ الإرادة والواجب أساساً له نجد أنه يتعذر إصدار حكم مطلق من الناحية الجمالية؛ لأن تعدُّد الأحكام الجمالية يرجع إلى الاختلافات العديدة بين أذواق الناس وإلى تنوع اهتماماتهم.

إن اختلاف النظرة للجمال يعود إلى تعدُّد آراء الفلاسفة وعلماء الجمال في كل أمة.

فالفلاسفة يصدرون أحكامهم التي تعبِّر عن روح أمتهم. فمثلاً الإنكليز تجريبيون، والألمان مثاليون، والفرنسيون عقليون. والجمال عند الهنود يتمثل في شفاه غليظة منتفخة، وأنف مفرطح ضخم، وأهل بيرو ينسبون له الآذان الكبيرة..

وقد يصيب التطوُّر هذه الحاجات الجمالية مع الزمن على صعيد الفرد والجماعة؛ فتختلف الأذواق وتتحوَّل باختلاف العلاقات، وأنماط المعيشة، والتغيُّرات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وغيرها.

فلو أخذنا الفن أداة للحكم على الحاجات الجمالية لوقتنا الحاضر لوجدنا أنها أصيبت بتغيُّرات جذرية؛ فالزائر الذي يتجوَّل في متحف للفن الحديث إذا انتقل من قاعة تضم لوحات انطباعية إلى قاعة أخرى تضم لوحات حديثة من الفن التجريدي أو التجسيمي لاجتاحه، ولاريب، شعور بالانتقال من عالم إلى آخر، وإحساس بالغربة عميق.

إنَّ الانقلاب الكبير يستجيب لحركة ضرورية عميقة لامفرَّ منها. وهذه الحركة ولدت داخل الفن استجابة لعوامل التطوُّر والميل الجارف إلى التجديد.

ولابدَّ من الإشارة إلى أنَّ حاجات الناس الجمالية كانت في جميع الأزمنة أكبر من حدود الفن، وأوسع من أن تشبعها آثاره. ولطالما بحثت تلك الحاجات عن كفايات لها عبر أشياء كالأسلحة والملابس والعربات والجياد والأثاث مما لايمكن أن يكون من أعمال الفن، والآثار الجميلة.

ولو تأملنا النظريات الجمالية لتكوَّنت لدينا فكرة جوهرية مفادها أن الجمال يمثل نزوعاً إلى الكمال المتحرر في قليل أو كثير من قيود الوجود المادي، أو على الأقل الساعي إلى توحيد ظواهر الكون في مفهوم شامل متآلف العناصر.

لماذا نريد من إحساساتنا أن تتصل بكل ماهو جميل؟ فنختار من الطبيعة أبهى أماكنها لقضاء العطل، ونزيِّن ماحولنا بمختلف فنون العمارة والديكور. ونزيِّن أنفسنا بالثياب والروائح الطيبة، وأحاديثنا بالأدب والشعر، ونضفي على أجواء عزلتنا مانختاره من أعذب الألحان؟

هل هذا كلُّه من أجمل البهجة التي يعطينا إياها الشعور بالجمال؟

وهل السعادة محصورة بجمال الروح والمكان الذي تقيم فيه؟

وهل يظهر الجمال إلَّا للمشاعر الحساسة ليداوي الرغبات إذا شوَّشتها تدخلات الحياة، وقبح الجانب السيء من الوجود؟

الجمال دعوة للتأمل في المعطيات الفنية سواء تلك التي صنعها الله بالطبيعة ومن جملتها الإنسان، أو تلك التي حاكى فيها الإنسان صنعة ربه.

هذه الدعوة إلى التأمل دعوة لإبهاج النفس، والاندفاع نحو الأمل. وفي كل أمل عنصر تحسين.

وفي حدود الأفق الأخير للأمل يتحدَّد مصير الإنسان.

إنَّ انجذابنا نحو الجمال هو الخطوة الأولى نحو مصيرنا!!

الجميل في كتب اللغة

للجميل في كتب اللغة دلالتان:

أمّا الأولى فحسّية

وأمّا الثانية فمعنوية

إنَّ الجميل هو الشحْم يُذاب ثمّ يُجمع، والجميل هو ضدُّ القبيح أيضاً[1].

ويشير ابن قتيبة (ت 276هـ) إلى المناسبة بين الدلالتين بقوله:

«والجميل الودَك بعينه. ووصف الرجل به يُراد أنَّ ماء السّمن يجري في وجهه»[2]. ويبدو أنَّ الدلالة الحسّية للفظة الجميل كانت قد بدأت بالتراجع في الشعر العربي منذ أيام الجاهلية الأخيرة تاركةً مواقعها للدلالة المعنوية.

لقد استعملها أبو خراش الهذلي بمعنى الودَك في قوله:

يقاتِلُ جوعهم بمُكلَّلاتٍ
من الفُرتيّ يرعبها الجميلُ[3]

(1) ـ لسان العرب، وتاج العروس وجمهرة اللغة ص110.

(2) ـ أدب الكاتب ص83.

(3) ـ ديوان الهذلين 141/2 المكلّلات: الجفان الممتلئة ـ الفرتي: الخبز الغليظ ـ يرعب: يملأ.

أما الدلالة المعنوية فتبدو أكثر دوراناً في أشعار القدماء.

يذكر على سبيل المثال قول أبي خراش نفسه معتذراً إلى زوج أخيه المقتول عروة:

ولاتحسبي أنّي تناسيت عهده

ولكنّ صبري يا أميمُ جميلُ

وقول ذي الإصبع العدواني مخاطباً ولده أسيداً:

أأسيدُ إن مالاً ملكت فسرْ به سيراً جميلاً[1]:

وقول عبد قيس بن خفاق ينصح ولده جبيلاً:

وإذا تشاجر في فؤادك مرةً

أمران فاعمد للأعفّ الأجمل[2]

(1) ـ ديوانه ص72.

(2) ـ الأصمعيات ص23.

بين الجميل والحسن

ليس الجمال بمئزرٍ
فاعلم وإن ردّيت بردا
إنَّ الجمال معادنٌ
ومناقبٌ أورثن حمدا

عمرو بن معد يكرب

وفي كتاب الأغاني القصة التالية:

«قالت سكينة لعائشة بنت طلحة: أنا أجمل منك».

وقالت عائشة؛ بل أنا. فاختصمتا إلى عمر بن أبي ربيعة فقال:

أمَّا أنتِ ياسكينة فأملح منها.

وأمَّا أنتِ ياعائشة فأجمل منها. فقالت سكينة: قضيتَ لي والله[1].

تدلُّنا هذه القصة على نوعين للحسن وهما الملاحة والجمال.

وإذا أردنا أن نتفهَّم معاني كلٍّ من هذين النوعين وجدنا ذلك

(1) - ج 14 ص162.

في أخبار هاتين السيِّدتين.

فقد جاء في الأغاني[1]:

«كانت سكينة عفيفة سَلِمَة برزةً من النساء تجالس الأجلَّة من قريش، ويجتمع إليها الشعراء، وكانت ظريفة مزَّاحه. ويُروى أنها كانت أحسن الناس شعراً، وكانت تصفِّف جمَّتها تصفيفاً لم يُرَ أحسن منه؛ حتى عرف ذلك وكانت تلك الجمَّة تسمَّى السكينية».

وأمَّا عائشة فكانت بديعة حقاً مثالاً في تناسب التكوين واعتدال الملامح، وانسجام الأعضاء كما يتصوَّر الذوق العربي إذ ذاك.

ونجد في عيون الأخبار مايؤكِّد هذا التفسير.

قالت امرأة خالد بن صفوان له يوماً: ما أجملك!! قال: ماتقولين ذاك؛ ومالي عمود الجمال، ولاعليَّ رداؤه، ولابرنسه.

قالت: ماعمود الجمال، ومارداؤه، ومابرنسه[2]؟

قال: أمَّا عمود الجمال فطول القوام في قِصر، وأمَّا رداؤه فالبياض ولست بأبيض.

وأمَّا برنسه فسواد الشعر وأنا أصلع. ولكن لو قلت: ماأحلاك!! وماأملحك كان أولى.

وعدَّد ابن المقفع في «الأدب الصغير» أموراً لاتصلح إلَّا بقراءتها

(1) - ج 2 ص159.
(2) - الأغاني. ج4 ص21.

ومنها أنّه «لاينفع الجمال بغير حلاوة»(1) وهذا يدلُّ على أنَّ الجمال غير الحلاوة، أو أنّه بها يتمُّ نفعه ويكتمل رونقه.

وقد كتب الوزير الحافظ ابن حزم رسالة (في مداواة النفوس، وتهذيب الأخلاق) جاء فيها:

«ورب جميل الصفات على انفراد كلٌّ منها بارد الطلعة غير مليح ولاحسن، ولارائع، ولاحلو».

(1) ـ رسائل البلغاء ـ ص28.

الفصل الثاني

- معاني العين
- ثقافة العين وأهميتها
- أنواع النظر

معاني العين

العين[1] حاسة البصر والرؤية. والجمع أعينٌ وأَعْيُنات الأخيرة -جمع الجمع والكثير عيون، وتصغير العين عُيَيْنَة ومنه قيل ذو العيينتين للجاسوس.

والعَيْن: الذي يُبعث ليتجسَّس الخبر.

قال تعالى: ﴿ولتُصنع على عيني: لتربَّى من حيث أراك﴾

وفي التنزيل:

«واصنع الفلك بأعيننا» بإبصارنا إليك، وعين الله لاتفسَّر بأكثر من ظاهرها، ولايسع أحداً أن يقول: كيف هي ماصفتها؟

والعَيَن: أن تصيب الإنسان بعين.

وعان الرجل يعينُه عيناً فهو عائن والمصاب مَعِينٌ على النقص ومَعْيون على التمام.

قال الزجَّاج:

المَعَين: المصاب بالعين ـ والمَعْيون الذي فيه عين:

قال عباس بن مرداس:

(1) ـ ابن منظور ـ لسان العرب. الجزء الثالث ص301.

قد كان قومك يحسبونك سيّداً

وإخال أنّك سيّدٌ مَعْيُونُ

ورجل مِعْيان وعَيُونٌ شديد الإصابة بالعين والجمع عُيُن وعِيْن ويُقال أتيت فلاناً فما عيَّن لي بشيء، وماعيَّنني بشيء أي ما أعطاني شيئاً والعَين والمعاينة النظر. رآه عِياناً: أي مواجهةً.

وتعيَّنت الشيء: أبصرته. ورأيت عائنة من أصحابه: أي قوماً عاينوني. نَعِم الله بك عيناً: أي أنعمها.

الْعَيَن: عظم سواد العين وسَعَتها.

ويُقال: أعين: إذا كان ضخم العين واسعها، والأنثى عيناء والجمع منها عِيْن ومنه قيل لبقر الوحش عِين صفة غالبة. قال تعالى ﴿وحُورٌ عِين﴾.

وفي الحديث: «إنَّ في الجنة لمجتمعاً للحور العين».

وعُيون البقر: ضرب من العنب الأسود ليس بالحالك، ولاصادق الحلاوة؟

وثوبٌ معيَّن: في وشيه ترابيع صغار تشبَّه بعيون البقر الوحشي.

فلانٌ عَينُ الجيش: رئيسه. الاعتيان: الارتياد.

وبعثنا عيناً: أي طليعة يعتاننا ويعتان لنا أي يأتينا بالخبر.

العين: الجاسوس.

أعيان القوم: أشرافهم وأفاضلهم على المثل بشرف العين الحاسة.

العَين: عين الماء، وينبوع الماء الذي ينبع من الأرض. والجمع أَعْينُ وعُيُون.

وفي الحديث: «خير المال عينٌ ساهرةٌ لعين نائمةٍ».

أراد عين الماء التي تجري، ولاتنقطع ليلاً ونهاراً، وعين صاحبها نائمة؛ فجعل السهر مثلاً لجريها.

عانتِ البئر عيناً: كثر ماؤها.

العينّ: الجديد ـ العَينْ: الناحية.

عين الشمس: شعاعها الذي لاتثبت عليه العين.

العَينَ: المال الحاضر ـ النقد.

والعَيْن: في الميزان المَيْل: قيل هو أن ترجحَ إحدى كفتيه على لأخرى.

يُقال: مافي الميزان عَين (أي ميل).

وعَيْنُ الشيء: حقيقته.

جاء الحق بعينه: أي خالصاً واضحاً.

وعين كلّ شيءٍ: خياره، ونفسه، وحاضره، وشاهده.

لا أطلب أثراً بعد عَين: أي مُعايَنَه.

لا أترك الشيء وأنا أعاينه، وأطلب أثرهُ بعد أن يغيب عني. أصلُه أنَّ

رجلاً رأى قاتل أخيه، فلما أراد قتله قال:

أفتدي بمائِة ناقة فقال: لست أطلب أثراً بعد عَين. وقتلَه.

الأعيانُ: الإخوة يكونون لأب وأمٍ ولهم أخوة لِعَلّات فعلت ذلك عَمدَ عين:

إذا تعمَّدته بجدٍ وتعَيين.

ثقافة العين وأهميتها

إنَّ للعيون لغة خاصة[1] ومن يفهمها يدرك علماً كثيراً في وقت قصير، ويفتح عينيه على آفاق جديدة من ثقافة العين وتربيتها.

فالمناظر الطبيعية، والألوان المنسجمة، والوجوه الجميلة ثقافة بصرية ممتعة يمكن تعليمها للأطفال قبل بلوغهم مرحلة الكلام؛ لأنّ ذلك يكوِّن لهم إحساساتٍ جمالية مبكّرة، ويريحهم في مهودهم؛ فينشرحون للحياة، ويتذوّقونها بعيونهم وهم صامتون.

واللغة المرئية تدرِّب العيون على الرؤية والتمييز فإذا كبر الصغار ظلَّت لهم دربتهم قوة تحمي العيون إلى آخر العمر سليمة نفّاذة.

يركن الطفل في حضن الأم ساعات وهي تحنو عليه بدفئها وحنانها، تبادله النظرة والابتسامة.

إنَّ تربية العيون تعطي صاحبها ثروة من الحب والجمال تفوق كثيراً مايكسبه عن طريق سواهما.

الحواس جميعها مهمةٌ في حياة الإنسان؛ غير أنَّك بنظرة واحدة من عين مثقَّفةٍ جميلة تقرأ ما لايقرأ في كتب عديدة خصوصاً إذا كانت العين الأخرى ذات ثقافة عليا من المستوى ذاته.

(1) ـ أسعد علي ـ مسرح الجمال والحب والفن، ص157 ـ ص158.

وقد فطن الشعراء إلى ماتقرّره العيون من العلاقات الاجتماعية فقال قائلهم:

والعين تعرف من عيني محدِّثها

إن كان من حزبها أو من أعاديها

ولو تأملَّ الإنسان في عينيه، والمقدرة التي أودعها الله فيهما لتعلَّم أموراً كثيرة؛ فبالعين يرتفع الإنسان إلى السماء بلمحة.

ولو فكَّر بذلك لعرف أنَّ عينيه تدلانه على طريق المقدرة فيه، وتلهمانه الطموح ليدرك الأبعاد المديدة في وقت قصير.

في سورة طه الآية «39» «وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني».

يصنع الله عبده ورسوله على عينيه؛ أي يربِّيه محفوفاً بعنايته وحفظه وإكرامه. وجمال التصوير في الجمع بين المنظر الحسِّي والمنظر النفسي.

فالعين محفوفة بالأجفان والأهداب والحواجب لأنَّها حسَّاسة وأثيرة وعليها تقوم الصناعة التربوية.

هنا إشارتان:

الأولى: تعني أنَّ من نربِّيهم لهم علينا حق الرعاية والحفظ كما لعيوننا.

وفي ملاحظة التكوين الجمالي للعيون ندرك أية رعاية إلهية أحاطت

بالعين فكوَّنتها من طبقات، وغطَّتها بأجفان، وظلَّلت الأجفان بأهداب، ورفعت فوقها ستار الحاجبين.

الثانية: تعني أنَّ الإنسان الذي تربيِّه مثل العين سريع العطب.

وهذا الإنسان مثل العين قدرة خارقة إذا رُعيت تنطلق في الأبعاد، وتدرك مافي الآفاق، وتضيء مافي النفس.

هذا سرُّ المنهج العيني الذي يحمل العشَّاق على القول: «أحببته من أول نظرة».

العين والعون صديقان.

والنفوس المتعطِّشة للحب تجد في العين ينبوع حنان ومحبة فتلقي ذاتها إليه لترتوي من الظمأ.

وفي ظلال العينين يتعلَّم الإنسان معنى الحب، وتبسط الأزاهير أيديها للنسيم، ويرقص العشب على إيقاع الندى، وتكتب الأغصان أناشيد الطيور، وألحان الحياة.

أنواع النظر

وللنظر أنواع[1]: فإذا نظر الإنسان إلى الشيء بمجامع عينه قيل: رمقه وإذا نظر من جانب أذنه قيل: لحظه. فإن نظر بعجلة قيل: لمحه. فإن رماه ببصره مع حدَّة قيل حدجه.

وفي حديث ابن مسعود «حدِّث القوم ماحدجوك بأبصارهم» فإن نظر إليه بشدَّة وبحدَّة قيل: أرشقه، وأسفَّ النظر. إليه فإن فتح عينيه لشدَّة النظر قيل: حدَّق. وإن انقلب حملاق عينيه قيل: حملق. فإن أعاره لحظ العداوة قيل: نظر إليه شزراً. وإن نظر إليه بعين المحبة قيل نظر إليه نظرة ذي علق. وإن فتح عين مهدِّد قيل حمج، وإن فتح عينيه لايطرف قيل شخص والإشارة[2] بمؤخرة العين الواحدة نهيٌ عن الأمر، وتفتيرها إعلان بالقبول، وإدامة نظرها دليلٌ على التوجُّع والتأسُّف. وكسر نظرها آية الفرح. والإشارة إلى إطباقها دليل على التهديد، وقلب الحدقة إلى جهة ما ثم صرفها بسرعة تنبيه على مشار إليه. وإذا تَهيَّأ الرجل للبكاء قيل: أجهش. فإنَّ امتلأت عينه دموعاً قيل: اغرورقت، وترقرقت. فإذا سالت قيل: دمَعَت، فإذا صاح مع البكاء قيل: أعول. فإذا حاكت دموعها المطر قيل: همت فإذا كان البكاء صوتاً قيل: نحب ونشج.

(1) ـ أبو منصور الثعالبي ـ فقه اللغة وسرُّ العربية ـ ص123 ـ 125.

(2) ـ ابن حزم الأندلسي ـ طوق الحمامة ـ ص136.

يقول الوليد بن يزيد:

مازلت أرمقها بعيني وامقٍ
حتى بصرتُ بها تقبّل عودا
فسألت ربّي أن أكون مكانه
وأكون في لهب الجحيم وقودا

وسمع ابراهيم بن المهدي غناء جارية[1]:

أشرت إليها هل عرفت مودّتي؟
فردّت بطرف العين إنّي على العهد
فحِدت عن الإظهار عمداً لسرّها
وحادت عن الإظهار أيضاً على عمد
ـ أليس عجيباً أنّ بيتاً يضمُّني
وإياك لانخلو ولانتكلَّم
سوى أعين يشكو الهوى بجفونها
وتقطيع أنفاس على النار تضرم
إشارةُ أفواه وغمز حواجبٍ
وتكسير أجفانٍ وكفٌ يسلِّم

وقد أورد أبو حاتم[2] عن الأصمعي عن يونس بن مصعب قال: أتاني

(1) ـ ابن عبد ربه ـ العقد الفريد ـ ج3 ـ ص201.
(2) ـ ابن عبد ربه ـ العقد الفريد ـ ج7 ـ ص97.

رجل من قريش يستشيرني في امرأةٍ يتزوَّجها فقلت: يا ابن أخي: أقصيرة النسب أم طويلته؟ فلم يفهم عني.

فقلت: يا ابن أخي: إنّي أعرف في العين إذا عرفتْ، وأُنكر فيها إذا أنكرتْ، وأعرف فيها إذا لم تعرف، ولم تُنكر. أما إذا عرفت فتتحاوص، وأمَّا إذا أنكرت فتجحظ، وأمَّا إذا لم تعرف ولم تنكر فتسجو؛ وقد رأيت عينك ساجية. فالقصيرة النسب هي التي إذا ذكرتْ أباها اكتفت به. والطويلة النسب هي التي لاتُعرف حتى تطيلَ في نسبتها. فإيَّاك أن تقع في قوم قد أصابوا كثيراً من الدنيا مع دناءة فيهم فتضيع نفسك فيهم.

ويُقال: إنَّ المرأة إذا كانت مبغضةً لزوجها فآية ذلك أن تكون عند قربه منها مرتدة النظر عنه كأنَّما تنظر إلى إنسان وراءه. وإذا كانت محبةً له لاتقلع عن النظر إليه.

قال المبرِّد: أردت أن أعلم كيف حالي عند امرأتي، فالتفتُّ وقد نهضْتُ من بين يديها فإذا هي تكلح في قفاي أي (تكشِّر في عبوس).

وإدمان النظر من علامات الحب. فالعين باب النفس وهي المنقِّبة عن سرائرها، والمعبِّرة عن ضمائرها. وكثيراً مايكون لصوق الحب بالقلب من نظرةٍ واحدةٍ.

فالشاعر يوسف بن هارون(1) كان مجتازاً عند باب العطَّارين بقرطبة. وهذا الموضع كان مجتمع النساء. فرأى جاريةً أخذت بمجامع قلبه، وتخلَّل حبُّها جميع أعضائه. فانصرف عن طريق الجامع، وجعل

(1) ـ ابن حزم الأندلسي ـ طوق الحمامة ـ ص122 ـ 123

يتبعها، فلمّا نظرت منه منفرداً عن الناس لاهمَّة له غيرها انصرفت إليه وقالت: مالك تمشي ورائي؟ فأخبرها بعظم بليَّته بها. فقالت له: دع عنك هذا، ولاتطلب فضيحتي فلا مطمحَ لك فيَّ البته، ولا إلى ماترغبه سبيل. فقال: إنِّي أقنع بالنظر. فقالت: ذلك مباح لك. فقال لها: ياسيِّدتي أحُرَّةٌ أم مملوكة؟ قالت مملوكة، فقال لها: مااسمك؟ قالت: خلوة، قال ولمن أنت؟ فقالت له: علمك واللهِ بما في السماء السابعة أقرب إليك مما سألت عنه، فدع المحالَ، فقال لها: ياسيِّدتي، وأين أراك بعد هذا؟ قالت: حيث رأيتني اليوم في مثل تلك الساعة من كلِّ جمعة.

قال يوسف بن هارون: ولم أرها بعد ذلك، ولاأدري أسماءٌ لحسَتْها، أم أرض بلَعَتْهَا. وإنَّ في قلبي منها لأحرَّ من الجمر.

ويقول ابن حزم الأندلسي في كتابه «طوق الحمامة» فمن أحبَّ من نظرة واحدة وأسرع العلاقة من لمحة خاطرة فهو دليل على قلة الصبر، ومخبرٌ بسرعة السلوّ وهكذا في جميع الأشياء: أسرعها نموّاً أسرعها فناءً، وأبطؤها حدوثاً أبطؤها نفاذاً. ثم يتابع قائلاً: وإنّي لأطيل العجب من كلِّ من يدَّعي أنَّه يُحب من نظرة واحدة، ولاأكاد أصدِّقه ولاأجعل حبَّه إلَّا ضرباً من الشهوة.

وقد أنشد ابن حزم فيمن أحسَّ من نفسه بابتداء هوى، أو توجَّس من استحسانه ميلاً إلى بعض الصور فاستعمل الهجر، وترك الإلمام، لئلا يزيدَ مايجدُ فيخرجَ الأمرُ عن يده[1]:

---

(1) ـ ابن حزم الأندلسي ـ طوق الحمامة ـ ص125

سأبعدُ عن دواعي الحبِّ إنِّي
رأيت الحزم من صفة الرشيد
رأيتُ الحبَّ أوَّلُه التصدِّي
بعينك في أزاهير الخدود
فبينا أنت مغتبط مخلَّى
إذا قد صرت في حَلَقِ القيود
كمُغترٍ بضحضاحٍ قريبٍ
فزلَّ فغاب في غَمْر المدُودِ

ويرى ابن حزم الأندلسي، أنَّ جوهر العين أرفع الجواهر، وأعلاها مكاناً، لأنّها نوريّة لاتُدرك الألوان بسواها، ولاشيء أبعد مرمى ولاأنأى غاية منها، لأنها تدرك بها أجرام الكواكب التي في الأفلاك البعيدة.

وتُرى بها السماء على شدَّة ارتفاعها وبُعدها. وليس ذلك إلَّا لاتصالها في طبع خلقتها بهذه المرآة، فهي تدركها وتصل إليها بالصغر. لاعلى قطع الأماكن، والحلول في المواضع، وتنقُّل الحركات، وليس هذا الشيء من الحواس مثل الذوق واللمس لايُدركان إلَّا بالمجاورة، والسمع والشم لايُدركان إلَّا من قريب.

ويوضِّح أنَّ العين تنوب عن الرسول، ويُدرك بها المراد.

فالحواس الأربع أبواب إلى القلب، ومنافذ نحو النفس.

والعين أبلغها دلالةً، وأوفاها عملاً.

وهي رائد النفس الصادق، ودليلها الهادي، ومرآتها المجلوة التي بها

تقف على الحقائق وتميّز الصفات، وتفهم المحسوسات.

وقد قيل: ليس المخبر كالمعاين.

ولأبي علي بصير قوله في النظر الخلس، والحب الصامت(1):

ألمَّت بنا يوم الرحيل اختلاسةً
فأضرم نيران الهوى النظرُ الخلسُ
فخاطبها صمتي بما أنا مضمرٌ
وأنبستُ حتى ليس يُسمَعُ لي حسُّ

أمَّا العباس بن الأحنف باعث العذرية الأموية في عصر بني العباس فيتساءل كيف يخفي سره إذا غضَّ طرفه عن النظر إلى وجه الحبيبة؟ مادامت الدموع تجري فتبوح بالسرائر.

هبوني أغضُّ إذا مابدت
وأملك طرفي فلا أنظرُ
فكيف استتاري إذا مالدمو
عُ نطقن فبُحن بما أضمرُ

ويرى الشاعر خالد الكاتب أنَّ العين ظالمة لاتعرف العدل(2):

نظرت إليَّ بعين من لم يعدِلِ
لما تمكَّن طرفها من مقتلي

(1) ـ ابن قتيبة ـ الشعر والشعراء ـ ص337.

(2) ـ زهر الآداب ـ ج2 ـ ص239.

لما رأت شيباً ألمَّ بمفرقي
صدَّت حدود مفارقٍ متعجِّل
وظللت أطلب وصلها بتمُّلقٍ
والشيب يغمزها بألَّا تفعلي

الفصل الثالث

- محاسن العين
- أوصاف العيون الجميلة:
  - الفتور
  - العيون الكحيلة الساحرة
  - العين الحوراء
  - العين الزرقاء
  - العين الخضراء

محاسن العين[1]

الفتور: انكسار النظر فيه تبدو العين كأنّها ناعسة وكأنّها مريضة وليس بها مرض.

الدعَّج: أن تكون العين شديدة السواد مع سعة المقلة.

البَرَج: شدَّة سوادها وشدّة بياضها.

النَّجل: سعتها.

الكحَل: سواد جفونها من غير كُحْل.

الحَوَر: اتساع سوادها.

الوَطَف: طول أشفارها وتمامها.

ورجل ملوَّز العين: إذا كانتا في شكل اللوزتين.

واستحسن بعضهم في العين القَبَلَ: وهو ميل الحدقة في النظر إلى الأنف.

---

(1) ـ أبو منصور الثعالبي ـ فقه اللغة وسرُّ العربية ـ ص121.

أوصاف العيون الجميلة

اعتمد الشعراء العرب في وصفهم العيون الجميلة على التشبيه والمقاربة، وأعربوا[1] عن رقة شعورهم، وإحساساتهم بالجمال بلغة عذب جرسها، حلوة ألفاظها.

ومن العسير على الإنسان مهما أوتي من عذوبة اللفظ وروعة البيان، وقوة البلاغة أن يصف بكلمات محدودة جمالاً صنعه الخالق، وأن يعبّر بقلمه القاصر عن معان ساحرة رسمتها يد القدر على لحاظ العيون.

في حركات المقلة والجفون والألحاظ تأثير كبير على جمال العينين.

والعينان هما أكثر أعضاء الإنسان حركة، وحركاتهما الدائبة لاتتخذ لوناً رتيباً خفياً كدقات القلب. بل إنَّ كلَّ مافي العين يتحرك وبشكل مختلف. الجفون تختلج، والأهداب ترتعش، والمقلة تدور، والحواجب تعلو وتهبط، وإنسان العين يضيق ويتّسع، وعدسة العين داخل المقلة تنقبض وتنبسط. وكثير من هذه الحركات الظاهرة لها أثر ودلالة، ومعنى في رموز الوجدان تعبّر عن المعاني المستعرة في أعماق النفوس.

فمن أوصاف العين المستحسنة الفتور، وهو انكسار النظر وذبوله في أصل الخلقة. وهو معنى وصفهم العين بالمرض والسقم. حلاوة الحركة

(1) ـ الدكتور عبد الرحمن البابا ـ في أدب وطب العيون ـ ص17.

في العين تكمن في الفتور، وغض البصر، وسحر اللحاظ. والفتور في عين المرأة هو إسبال لطيف بجفنيها، وهو نوع من الدلّ والغنج يضفي على عينيها جمالاً فوق جمال.

قال ابن ميّادة:

ونظرن من خلل الستور بأعينٍ

مرضى يخالطها السقام صحاحِ

وقال عبد الله بن جندب[1]:

ألا ياعباد الله هذا أخوكمُ

قتيلٌ فهل فيكمُ اليوم ثائرُ

خذوا بدمي إن متُّ كلَّ خريدةٍ

مريضة جفن العين والطرف ساحرُ

وقد نسب إلى معاوية قوله في جارية عرضت له في قصره فارتاع لجمالها فدعاها وافترعها بكراً ثم قال وكان قد ترك الشعر:

سئمت غوايتي فأرحت حلمي

وفيَّ على تحمُّلي اعتراض[2]

على أني أجيب إذا دعتني

ذوات الدلّ والحدق المراض

(1) ـ محمد بن أحمد التجاني ـ تحفة العروس ومتعة النفوس، ص283.

(2) ـ زهر الآداب ـ ج1 ـ ص91.

وقال أبو نواس[1]:

ضعيفة كرّ اللحظ تحسب أنها

قريبة عهد بالإفاقة من سقم

هذا الذبول والفتور يستحسنه أبو نواس بقوله:

لولا فتور في كلامك يشتهى

وترفُّقي بك بعد واستملاحي

وتكسُّر في مقلتيك هو الذي

عطف الفؤاد عليك بعد جماح

لعلمت أنك لاتمازح شاعراً

في ساعة ليست بحين مزاح

وقد شبّهه ابن المعتز[2] بالنرجس حين قال:

وسنان قد طرق النعاس جفونه

فحكى بمقلته ذبول النرجس

وتتكرّر في أبياته لفظة الضعيف:

قد صاد قلبي قمرٌ   يسحر منه النظرُ

ضعيفة أجفانه   والقلب منه حجر

كأنما ألحاظه   من فعله تعتذر

(1) ـ تحقيق أحمد عبد المجد الغزالي ـ القاهرة ـ ص542.

(2) ـ علي أحمد أدونيس ـ ديوان الشعر العربي.

لم أر وجهاً مثل ذا نجـا عـلـيـه بـشـر

وهو الذي يقول[1]:

عليم بما تحت العيون من الهوى

سريع بكسر اللحظ والقلب جازع

فيجرح أحشائي بعين مريضة

كما لان متن السيف والحدُّ قاطع

وهذه العين المريضة تدعو إلى الهلاك على حد تعبير عمر بن أبي ربيعة[2]:

ولكن دعت للحين عين مريضة

فطاوعتها عمداً كأنك حالم

نظرت إليك بمقلتي يعفورة

نظر الربيب الشادن الوسنان[3]

كما قال أحدهم:

لقد فتكت عيون الغيد فينا

بيضٍ مرهفاتٍ وهي سودُ

وتطعننا القدود إذا التقينا

بسمرٍ من أسنَّتها النهودُ

(1) ـ الأبشيهي ـ المستطرف من كل فن مستظرف ـ ص406

(2) ـ ديوان عمر بن أبي ربيعة ت ص210.

(3) المرجع نفسه ـ ص271.

وقد ورد في كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه لأبي الحسن الجرجاني قوله:

«وقد علمت أنَّ الشعراء قد تداولوا ذكر عيون الجآذر، ونواظر الغزلان حتى إنك لاتكاد تجد قصيدة ذات نسيب تخلو منه إلَّا في النادر، ومتى جمعت ذلك ثم قرنت إليه قول امرئ القيس:

تصدُّ وتبدي عن أسيلٍ وتتَّقي
بناظرةٍ من وحش وجرةَ مُطفل

أو قابلته بقول عدي بن الرقاع:

وكأنها بين النساء أعارها
عينيه أحور من جآذر جاسم

«رأيت إسراع القلب إلى هذين البيتن، وتبيَّنت قربهما منه والمعنى واحد وكلاهما خالٍ من الصنعة، بعيد عن البديع إلَّا ماحسن به من الاستعارة اللطيفة التي كسته هذه البهجة».

وأما ماتمَّم به عدي الوصف بقوله على إثر هذا البيت:

وسنان أيقظه النعاس فرنَّقت
في عينه سنة وليس بنائم

«فقد زاد به على كلٍّ من تقدَّم، وسبق بفضله جميع من تأخَّر؛ ولو قلت اقتطع هذا المعنى فصار له، وحظَّر على الشعراء ادِّعاء الشرك فيه لم

أرني بعدت عن الحق، ولاجانبت الصدق»[1].

الفتور:

ويعرِّف ابن الرومي[2] الفتور في العينين بأنه فتور غنج لافتور نعاس:

يسبي العقول بمقلة مكحولة
بفتور غنج لافتور نعاس

قال الأصمعي[3]: ما وصف أحد العيون بمثل ماوصف به عدي الرقاع العاملي في قوله:

فكأنها دون النساء أعارها
عينيه أحور من جآذر جاسم
وسنان أقصده النعاس فرنَّقت
في عينه سِنة وليس بنائم
يصطاد يقظان الرجال حديثها
وتطير بهجتها بروح الحالم

وجاء في القصيدة اليتيمة:

وتخالها وسنى إذا نظرت
أو مدنفاً لمَّا يفق بعد

(1) ـ سيد قطب ـ النقد الأدبي «أصوله ومناهجه».
(2) ـ الدكتور عبد الرحمن الباب ـ في أدب وطب العيون ـ ص39.
(3) ـ أدونيس ـ ديوان الشعر العربي ـ ص388.

بفتور عين مابها رمد

وبها تداوى الأعين الرمد

وغض البصر هو شأن المرأة الحرة التي تتميَّز بالخفر والحياء.

يقول خالد بن صفوان:

جيداء في حور وسنى على خفر

شمَّاء في بهر من خير نسوان

وقال عبد الله بن المعتز: أنشدني أبو سهل اسماعيل بن علي لأبي الصواعق قال:

ومريض طرف ليس يصرف طرفه

نحو المدى إلَّا رماه بحتفه

ظبي له نظر ضعيف كلَّما

قصد القوي أتى عليه بضعفه

وهاهو البحتري[1] يفدي بنفسه ذلك الغزال الذي تعلَّق به قلبه لجمال لحظه وفتوره:

بأبي شادن تعلَّق قلبي

بجفون فواتر اللحظ مرضى

لست أنساه بادياً من قريب

يتثنَّى تثني الغصن غضاً

(1) ـ ديوان البحتري ـ ص23.

أيها العاتب الذي ليس يرضى

نم هنيئاً فلست أطعم غمضا

وقريب من هذا المعنى قوله:

تبسم عن واضح ذي أثر

وتنظر من فاتر ذي حور(1)

ومما يبدِّد لب الحليم

حسن القوام وفتر النظر

ومن أجمل ماقاله في محبوبته علوة التي عاشت في مدينة حلب بعيدة عنه، بخيلة بالوصال يقترب منها فتبعد في الهوى.

وقد لعب الوشاة دورهم إلى جانب العذّال في محاولات إضعاف العلاقة بينهما يقول(2):

عرِّج على حلب فحيِّي محلةً

مأنوسة فيها لعلوة منزل

لغريرة أدنو وتبعد في الهوى

وأجود بالود المصون وتبخل

وعليلة الألحاظ ناعمة الصبا

غري الوشاة بها ولجَّ العذل

(1) ـ ديوان البحتري ـ ص97.

(2) ـ ديوان البحتري ـ ص25.

وأعزُّ ثم أذلُّ ذلة عاشق

والحب فيه تعزُّزُ وتذلّل

ويشير الشاعر **أحمد شوقي** إلى مافعلته الأعين الفاترات بألحاظها المريضة في القلوب الصحيحة بقوله[1]:

أداري العيون الفاترات السواجيا

وأشكو إليها كيد إنسانها ليا

قتلن ومنَّين القتيل بألسن

من السحر يبدلن المنايا أمانيا

وكلّمن بالألحاظ مرضى كليلة

فكانت صحاحاً في القلوب مواضيا

كما بيّن المتنبي قبله أنَّ هذه المرأة التي نظرت إليه قتلته بنظرها وليس تدري أنها باءت بإثم قتله، وأنَّ دمه في عنقها:

إنَّ التي سفكت دمي بجفونها

لم تدر أنَّ دمي الذي تتقلّد[2]

أبرحت يامرض الجفون بممرض

مرض الطبيب له وعيد العود

(1) ـ الشوقيات ت ص142.

(2) ـ ديوان المتنبي ـ ص32.

لقد أبرح به حبه لذلك الجفن المريض، إلى حد كبير تجاوزه إلى طبيبه الذي مرض، وعيد عوده رحمة له.

العيون الكحيلة الساحرة:

في حياة المجتمع الجاهلي، في البوادي والحواضر تقريباً يوشك أن يكون مفهوم الجمال متمثّلاً بالمرأة، متركّزاً فيها. فالجاهلي لايجد في حياته الضيّقة تعبيراً عن حسّ الجمال إلّا في هذا الجمال الأنثوي.

فالمرأة هي جِماع مظاهر الجمال وصوره؛ لذلك تكاد تكون محور اهتماماته النفسية، ووثباته العاطفية.

إنّ الجمال إنّما يخفق في إشراق وجهها، وطول جيدها واعتدال قامتها.

فحياة الشعراء الجاهليين تميّزت بالإرهاف والحساسية؛ ولذلك ركّزوا على الوصف الذي يتمثّل في بعض مظاهره بالتشبّيه الحسّي المستمدّ من الحياة التي كان يحياها الجاهليون، ورقة الحياة الداخلية التي كانت تنطوي عليها نفوسهم.

في الرقة يبدو الإحساس، وفي الخشونة تبدو الصورة التي تعكس هذا الإحساس.

فعند امرئ القيس[1] نلاحظ أنّ الشاعر يفصّل في وصف مفاتن محبوبته بوضوح وجرأة، وقصد. ونلمح إحساسه الدقيق بكلّ مافي

(1) ـ د. شكري فيصل ـ تطوّر الغزل بين الجاهلية والإسلام ـ ص141.

نظرة صاحبته من عطف وحنان وجمال وعمق، ونجد تأثره بذلك، واستجابته له، وتفاعله معه.

ولكننا حين ننشد التعبير عن هذه العين الجميلة الواسعة، وهذه النظرة العميقة النافذة، وهذا الحنان الذي يفيض عنها لانجد عند الشاعر غير نظرة بقرة وحشية مطفل من وحش وجرة.

تصدُّ وتُبدي عن أسيلٍ وتَّتقي

بناظرةٍ من وحشِ وجرةَ مُطفلِ

(المعنى: إذا أعرضت ظهر خدُّها الأسيل الممتد، وجعلت بيني وبينها عيناً ناظرة تشبه عيون وحش وجرة ـ البيت وصف لجمال خدّها وحسن عينيها اللتين تشبهان عيون الظباء. وجعل الظباء مُطفلة لأنَّ نظرتها إلى أولادها يخالطها الحب والعطف. فهي في تلك الحالة خيرٌ منها في أية حال أخرى).

ومثل ذلك فعل النابغة الذبياني حين عرض لنظرة صاحبته حيث عبَّر عن فيضٍ غامرٍ من الأحاسيس الموحية اليقظة التي وصلت بينه وبينها.

إنَّها تصبي الراهب الذي يجد فيها كلَّ شيءٍ ينشدُه في دنياه يرى فيها الرشد وإن لم يرشد(1):

نظرت بمقلة شادنٍ متربِّبٍ

أحوى أحمِّ المقلتين مقلَّد

نظرت إليك بحاجةٍ لم تقضها

(1) ـ د. شكري فيصل ـ تطوُّر الغزل بين الجاهلية والإسلام ـ ص144.

نظر السقيم إلى وجوه العوَّد

لو أنَّها عرضت لأشمط راهبٍ

يخشى الإله صرورةٍ متعبِّدِ

لرنا لبهجتها وحسن حديثها

ولخاله رشداً وإن لم يرشد

«الشادن: الظبي الذي استغنى عن أمه، المتربِّب: المربَّى: أحوى الشفتين: من الحوَّة وهي حمرة يعلوها سواد. أحمّ: شديد السواد. مقلَّد: طوِّق جيدة بالحلى.

يقول الشاعر:

«إنَّها تنظر بعيني غزال، وإنَّها حوَّاء الشفتين، سوداء المقلتين، مقلَّدة الجيد».

ويقول طرفة بن العبد(1):

وفي الحيِّ أحوى ينفضُ المَرْدَ شادنٌ

مُظاهِرُ سِمْطَيْ لؤلؤٍ وزبَرجدِ

ينفض: يعطو يمدُّ عنقه ليتناول ثمر الأراك. المرْدَ: ثمر الأراك. المُظاهِر: الذي لبس ثوباً فوق ثوب أو عقداً فوق عقد. السِمط: الخيط الذي نظمت فيه الجواهر.

ـ يشبِّه الظبي حين يمدُّ عنقه ليتناول ثمر الأراك، يعني أنَّه طويل

(1) ـ د. شكري فيصل ـ تطوُّر الغزل بين الجاهلية والإسلام ـ ص149.

العنق، وقد تحلَّى هذا الحبيب بعقدين من لؤلؤ وزبرجد. شبَّهه بالظبي في ثلاثة أشياء في كحل العينين وحوَّة الشفتين وحسن الجيد».

ويقول الأعشى[1]:

مبتلةٌ هيفاء رَوْدٌ شبابها

لها مقلتا ريم وأسود فاحم

ويُنسب إلى امرئ القيس قوله[2]:

لها مقلةٌ لو أنَّها نظرت بها

إلى راهبٍ قد صام لله وابتهل

لأصبح مفتوناً معنىً بحبِّها

كأن لم يصم لله يوماً ولم يُصل

إلى قوله:

حجازية العينين مكّية الحشا

عراقية الأطراف، رومية الكفل

ويتغنَّى الشاعر الجاهلي سويد بن أبي كاهل اليشكري بطرف محبوبته الساجي الفاتر، وعينيها الكحلاوين الخاليتين من أي عيب[3]:

(1) ـ ديوان الأعشى ـ ص77.

(2) ـ ديوان امرئ القيس ـ ص188.

(1) ـ الخطيب التبريزي: شرح اختيارات المفضل ـ ص870.

تمنح المرآة وجهاً واضحاً
مثل قرن الشمس في الصحو ارتفع
صافيَ اللون، وطرفاً ساجياً
أكحل العينين مافيه قمع

أمّا الشاعر كعب بن زهير فيصف محبوبته أيضاً بسواد العين وذبول الطرف في قصيدته المشهورة[1]:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول
متيّم عندها لم يجزَ مكبول
وماسعاد غداة البين إذ رحلوا
إلّا أغنّ غضيض الطرف مكحول

أمّا الشاعر الصوفي المنتجب العاني فيرى الليل صباحاً وينتابه شعور بالسعادة الخالصة؛ لأنّ المحبوب ابتسم له عن أسنان بيضاء كالأقاحي، فتدفّق دم النشاط في وجهه الذي اصطبغ بياضه بالحمرة. ويحاول الشاعر العبث بقطف التفاح من الوجنتين، فيدافع الحبيب عن ثماره بنظرةٍ أفضل مما تثيره السيوف المشرفية، كما أنه يرسم صورتين حسّيتين تمثّلان المحبوب بنظرته الرشيقة، وقدّه المشوق حيث يقول[2]:

(1) ـ أبو الفرج الأصفهاني «الأغاني» ج15 ـ ص147.
(2) ـ د. أسعد علي ـ فن المنتجب العاني ـ ص269.

إذا روضها كأنه جنان

ترتع فيه الحور والولدان

من كل أحوى طرفه فتّان

صاحٍ ومن خمر الصبا نشوان

رنا طلى واهتز سمهريا[1]

وبتُّ أرى ليلى بها صباحا

وثغره أبدى لي الأقاحا

فأنبتت وجنته تفاحا

فحين رمت قطفها مزاحا

سلَّ عليَّ اللحظ مشرفيا

من الملاحظ أنَّ الشعراء في العصر الجاهلي حدَّثونا عن مظاهر الجمال وعن وقعه على سمعهم وأبصارهم، وحواسهم ولكنَّهم لم يحدِّثونا عن أثر هذا الجمال في نفوسهم ولم يلتفتوا إلى وصف ماتركه من أصداء واهتزازات.

فالمعاني التي تعاقبوا عليها في الحديث عن مفاتن أحبتهم ووصفهم لها متقاربة تشترك في الصورة الخارجية. وإنَّ الكثرة الكثيرة منهم لم يجاوزوا الحديث عن محاسن الخِلقة إلى محاسن الخُلق، ولم يتعدُّوا جمال الصورة إلى جمال النفس.

وإذا تجاوزنا العصر الجاهلي إلى ماتلاه من عصور لاحظنا أنَّ الذوق

(2) الطلى ولد الظبية ـ السمهري: الرمح الطويل الصلب.

العربي الأصيل بقي ينكر التكحُّل لتجميل العيون ويفتتن بالعين الكحلاء الطبيعية البعيدة عن الجمال المصطنع. وفي اللغة العربية أمثال شعبية عن الكحل منها:

- أراد أن يكحُّلها فعماها.
- يسرق الكحل من العين.
- ليت كحلها يسدُ عينها.
- جبال الكحل تخليها المراود.

ولقد كان شاعرنا المتنبي معجباً بالجمال البدوي الطبيعي الذي لايعرف التكلُّف والتطرية، حيث قال:

ما أوجه الحضر المستحسنات به
كأوجه البدويات الرعابيب
حسن الحضارة مجلوب بتطريةٍ
وفي البداوة حسن غير مجلوب
أفدي ظباء فلاةٍ ماعرفن بها
مضغ الكلام، ولاصبغ الحواجيب

ويقول البوصيري:

قل للذين تكلفوا زيَ التُّقى
وتخيَّروا للدرس ألف مجلد

لاتحسبوا كحل الجفون بزينة

إنَّ المها لم تكتحل بالإثمد

ويقول ابن هانئ الأندلسي:

فتكات لحظك أم سيوف أبيك

وكؤوس خمر أم مراشف فيك

حسبوا التكحل في جفونك حليةً

تالله ما بأكفِّهم كحلوك

وقال الأبيوردي:

رمتني بسهم راشه الكحل بالردى

وأقتل ألحاظ الملاح كحيلها

وقد ذمَّ أعرابي امرأته فقال:

ولاتستطيع الكحل من ضيق عينيها

فإن عالجته صار فوق المحاجر

ويقول الشاعر في العين الكحلاء:

كأنهما مكحولتان بإثمد

ومابهما غير الملاحة من كحل

ولنستمع إلى أمير الشعراء شوقي(1) ومافهمه من لغة العيون السود

(1) ـ أحمد شوقي ـ الشوقيات ت الجزء الثاني ـ ص150.

عندما تعطلت اللغة المسموعة:

وتعطّلت لغة الكلام وخاطبت
عينيَّ في لغة الهوى عيناك

وهاهو في لبنان في بلدة «بكفية» يصيده سحر الجفون فيقول:

السحر من سود العين لقيته
والبابلي بلحظهن سقيته
الفاترات ومافترن رماية
بمسدَّدٍ بين الضلوع مبيتهُ
الناعسات الموقظاتي للهوى
المغريات به وكنت سليته
الشارعات الهدب أمثالَ القنا
يحيي الطعين بنظرة ويميته
وأغنَّ أكحلَ من مها بكفيةٍ
علقت محاجره دمي وعلقته
قد جاء من سحر الجفون فصادني
وأتيت من سحر البيان فصدته
فمشى إلي وليس أولَ جؤذر
وقعت عليه حبائلي فقنصته

العين رمز، ومصدر فتنة وسحر. اتخذ منها الفراعنة رمزاً لوحدة مصر القديمة واستمرار الحياة، ورمزاً دينياً للعودة إلى الحياة بعد الموت، وللصحة بعد المرض، حيث تقول الأسطورة إن عين أوروس اقتلعها «سات» ثم أعادها «طوط» كما كانوا يتخذونها تميمة تحمي من أمراض العين ثم من جميع الأمراض.

واتخذ المغنون العرب من العين نغماً شجياً يهتفون بها في الليل متصدرة الآهات والمواويل.

واتخذ منها عامة الشعب في معظم البلاد العربية تميمة باللون الأزرق لتحميهم من حسد العيون.

واتخذ منها الشعراء العرب أداة شعرية ورمزاً للمرأة كلِّها بشكل عام فخاطبوا المرأة بعينها.

فالعين الساحرة تفتن الرجال؛ فلا ينجو من شراكها إنسان. يخضع لها الملوك والحكام، تؤثِّر على ميزان العدل والقضاء إذ تستميل بسحرها قلوب القضاة.

يقول المستعين بالله:

عجباً يهاب الليث حدَّ سناني

وأهاب سحر فواتر الأجفان

وقال هذيل الأشجعي في عبد الملك بن عمير قاضي الكوفة يغمز من قناته بشأن أحكامه المنحازة:

وكان لها دلٌّ كحيلة

فأدلت بحسن الدلِّ منها وبالكحل

ودخل رجل على الشعبي[1] في مجلس القضاء، ومعه امرأته وهي من أجمل النساء فاختصما إليه، وأدلت المرأة بحجتها، وقرَّبت بيِّنتها فقال الشعبي للزوج: هل عندك من دفاع؟ فأنشأ يقول:

فُتِنَ الشعبيُّ لما ... رفع الطرف إليها
فتنته بدلال ... وبخطَّي حاجبيها
فقضى جوراً على ... الخصم ولم يقض عليها
كيف لو أبصر منها ... نحرها أو ساعديها
لصبا حتى تراه ... ساجداً بين يديها

فولع الناس بالأبيات وتناشدوها حتى اضطر الشعبي إلى الاستعفاء من القضاء.

والمعروف أن نداء الجنس يثير الشحنات الداخلية في النفوس، فتلهب المشاعر، وتستجيب الأنفس للجمال والحب، وتتبعثر موجات الفكر في العقول.

والسبب في ذلك كله يعود إلى العيون ونظراتها.

لذلك أوضح الإسلام العلاقة المباشرة بين الجنس ونظرات العيون «فأمر الرجال والنساء بغض البصر».

(1) ـ الراغب الأصفهاني ـ محاضرات الأدباء ـ ص87.

﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم﴾ «سورة النور آية 29».

﴿قل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن﴾ «سورة النور آية 30».

أمّا الشاعر ابن الرومي فيحدثنا عن المغنيّة «وحيد» التي سلبت فؤاده بجمالها المتكامل وحسنها الذي لايجد له مثيلا:

ياخليليَّ تيَّمتني وحيدُ
ففؤادي بها معنىً عميدُ
غادة زانها من الغصن قدٌّ
ومن الظبي مقلتان وجيدُ
وحسانٍ عرضن لي قلت مهلاً
عن وحيدٍ فحقُّها التوحيدُ
حسنها في العيون حسن وحيدٌ
فلها في القلوب حبٌّ وحيدُ[1]

قال المأمون في قينةٍ له[2]:

لها في لحظها لحظاتُ حتفٍ
تميت بها وتحيي من تريدُ

(1) ـ مصطفى طلاس ـ مختارات شعرية ـ 54.

(2) ـ ابن عبد ربه ـ العقد الفريد ـ ج7 ـ ص58.

فإن غضبت رأيت الناس قتلى

وإن ضحكت فأرواح تعودُ

وتسبي العالمين بمقلتيها

كأنَّ العالمين لها عبيدُ

وقد شرب المتنبي[1] كؤوساً مترعة من خمر ذلك الطرف الساحر واللحظ الفاتر:

وطرف إن سقى العشَّاق كأساً

بها نقصٌ سقانيها دهِاقا

وخصر تثبت الأبصار فيه

كأنَّ عليه من حدقٍ نطاقا

ذلك اللحظ القاتل يسفك الدماء؛ فتلك الشموس ماذهبن وجئن إلَّا أجرَيْن بلحظاهنَّ دماء عشَّاقهن[2]:

أيام فيك شموسٌ ما انبعثن لنا

إلَّا انبعثن دماً باللحظ مسفوكا

وفيه إشارة إلى قول أشجع:

فإذا نظرتَ إلى محاسنها

فلكلِّ موضع نظرة قتلُ

(1) ـ ديوان المتنبي ـ ج2 ـ ص296.

(2) ـ ديوان المتنبي ـ ج2 ـ 387.

ومثله لأبي نواس:

يا ناظراً ما أقلعت لحظاته
حتى تشحَّط بينهنَّ قتيلُ

وما أحسن ما أخذه بعضهم فقال:

وجفونٌ لك لاتطرف إلَّا عن قتيلِ
ماجميلُ الصبر عنها عند مثلي بجميلِ

ولعينيها وماتضمَّنتاه من السحر وأثارتاه من لوعة الحب مايلقاه قلب المتنبي من الوجد. وماكان ممن يميل إلى اللهو والعشق ولكنَّ جفون عينيها فتَّانةٌ لمن يراها. تدخل العشق في قلب من لم يعشق:

لعينيك مايلقى الفؤاد ومالقي
وللحبِّ مالم يبقَ مني ومابقي
وماكنت ممن يدخل العشق قلبه
ولكنَّ من يبصرْ جفونك يعشقِ

ويرى الشاعر مسلم بن الوليد[1] «صريع الغواني» أنَّ العين تسلب الألباب كالخمر، وتنطق بكلِّ معاني السحر، وألوان الفتنة:

إن كانت الخمر للألباب سالبةً
فإن عينيك تجري في مجاريها
سِيَّان كأس من الصهباء أشربها
ونظرة منكَ عندي حين تصبيها

(1) ـ ديوان مسلم بن الوليد ص216.

في مقتليك صفاتُ السحر ناطقةٌ

بلفظِ واحدةٍ شتَّى معانيها

ويؤكِّد المتنبي[1] الأثر القاتل للعيون الساحرة التي تفعل فعل السيوف.

فإذا بلغ سكون الحركة فيها نهايته مات من ينظر إليها من فرط حبها:

رأيْن التي للسحر في لحظاتها

سيوفٌ ظُباها من دمي أبداً حُمْرُ

تناهى سكون الحسن في حركاتها

فليس لراءٍ وجهها لم يمتْ عذرُ

ويتساءل: أيُّ شيءٍ أصابه من هوى العيون السود والأشفار السود مثل الأحداق:

مابنا من هوى العيون اللواتي

لونُ أشفارهنَّ لونُ الحِداق

وهو لم يرَ كالألحاظ يوم مفارقته الذين أحبَّهم.

لقد أدرن عيوناً حائراتٍ متابعات لحظها، متعبات بترادف دمعها كأنّما وضعت أحداقها على الزئبق؛ فهي حائرة لاتسكن، ومتعبة لاتفتر[2]:

(1) ـ ديوان المتنبي ـ ص124.

(2) ـ ديوان المتنبي ـ ج1 ـ ص307.

ولم أرَ كالألحاظ يوم رحيلهم
بعثْن بكلٍّ القتل من كلٍّ مشفق
أدرْن عيوناً حائراتٍ كأنّها
مركّبةٌ أحداقُها فوق زئبق

كما قال أحدهم:

لقد فتكتْ عيون الغيد فينا
ببيضٍ مرهفاتٍ وهي سودُ
وتطعننا القدود إذا التقينا
بسمرٌ من أسنّتها النهود

ويقول المتنبي: كم قتيل قتل بعيون المها: أي المشابهة لعيون المها - وليست تلك العيون التي قتلته كالعيون التي قتلتني وفتكت بي(1):

كم قتيلٍ، كما قُتلتُ شهيدِ
ببياض الطُّلى وَوَرد الخدود
وعيونِ المها، ولاكعيونٍ
فتكتْ بالمتيَّم المعمود

وفي المعنى ذاته يقول الشاعر أحمد شوقي(2):

---

(1) - ديوان المتنبي - ج1 - ص313.
(2) الشوقيات - ص139.

من صوَّر السِّحر المبين عيوناً
وأحلَّه حدقاً لها وجفونا؟
ياقلب إنَّ من البواتر أعيناً
سوداً وإن من الجآذر عينا

العين الساحرة تزداد حسناً بتزايد النظر إليها على حدٍّ تعبير أبي نواس
ذي يطلب الخمر من عينها الساحرة:

وساحرةِ العينين ماتحسن السحرا
تواصلني سراً وتقطعني جهرا
وهات اسقني من طرفها خمر طرفها
فإنّي امرؤٌ آليت لأشرب الخمرا
ودار بها ظبيٌ من الإنس ناعمٌ
ترود عيون الشّرب جانبه شَزْرا
إذا ماأدار الكأس ثنّى بطرفه
فعاطاهم خمراً وعاطاهم سحرا

ويقول الصلاح الصفدي:

ياعاذلي على عين محجبة
خفْ سحر ناظرها فالسحر فيه خفي
وخذ فؤادي ودعه نصب مقلتها
لاترم نفسك بين السيف والهدف

ويقول أحمد شوقي[1]:

لك قدٌّ سجد البان له

وتمنّت لو أقلّته الربى

ولحاظ من معاني سحره

جمع الجفن سهاماً وظبى

ويسدِّد أحور المقلة سهام اللحظ فيصمي الفؤاد كما يقول لسان الدين الخطيب في موشحته المشهورة[2]:

جادك الغيث إذا الغيث همى

يازمان الوصل بالأندلس

أحور المقلة معسول اللمى

جال في النفس مجال النفس

سدّد السهم فأصمى إذ رمى

بفؤادي نبلة المفترس

غزال يسلُّ السيوف من لحظة الأحور فيمتلك بحسنه القلوب التي لاتهدأ من روعها.

يقول ابن زمرك[3]:

بالله يا قامة القضيب

ومخجل الشمس والقمرْ

(1) ـ الشوقيات ـ الجزء الأول ـ ص117.

(2) ـ د. جوت الركابي ـ الأد الأندلس ـ ص328.

(3) ـ د. جوت الركابي ـ المرجع نفسه ـ ص328.

من ملَّك الحسن في القلوب
وأيَّـد الـلـحـظ بـالحَوَرْ
كم شادنٍ قاد لي الحتوفا
بربع القلب قد سكنْ
يسلُّ من لحظه سيوفاً
فالقلب بالروع ماسكن

ولاتختلف نظرة الشعراء الصوفيين إلى جمال المحبوب عن غيرهم من بقية الشعراء.

فلو نظرنا - على سبيل المثال - إلى حبيبة الشاعر الصوفي «المنتجب العاني» لرأيناها حبيبة دقيقة الخصر، مصقولة الترائب معتدلة القوام.

شعرها كالليل، وجهها كالبدر، أجفانها ناعسة ساحرة.

ومن نماذج شعره قوله في وصف المحبوب[1]:

وربَّ أهيف ساجي الطرف معتدلٍ
أغنَّ أحوى دقيق الخصر واهيه
أعار أمَّ الطَّلا من غُنج مقلته
وعلَّم البان ضرباً من تثنِّيه
فالنّرجسُ الغضُّ من عينيه أنهبه
والورد باللحظ من خدَّيه أجنيه

(1) - د. أسعد علي - فن المنتجب العاني - ص161.

ختمت سمعي وطرفي في هواه فلم

أنظر سواه ولاأصغي لواشيه

لقد ختم سمعه وبصره بحبِّ حبيبه؛ فما يسمع إلّا إياه، ولايبصر إلّا به.

إنَّه ليرتفع بالفهم إلى المستوى العُلْوي من صبابات العشّاق الصوفيين الذين يُكنُّون بالحبيب عن المطلق الأزلي الذي انبثق الكلُّ عنه ومنه.

وحينما لاترى العين حدود المباشر يتيقَّظ الباطن فتنفتح داخل الإنسان عيون وعيون.

الصوفي إنسان يرى ماوراء الأشياء والحدود. ولهذا كانت عينه العين، وشعره الشعر.

فالحلاج مثلاً يتجاوز في الرؤيا حدود القلب والغزلان والتوراة والمصحف ودين الحب.

لقد صار هو هو:

ياجملة الكلِّ لست غيري

فما اعتذاري إذن إليَّ[1]

أنا أهوى ومن أهوى أنا

نحن روحان حللنا بدنا

(1) ـ د. علي شلق ـ العين في الشعر العربي ـ ص102.

فـإذا أبـصـرتـنـي أبـصـرتـه

وإذا أبـصـرتـه أبـصـرتـنـا

أمّا ابن الفارض فيخلو مع الحبيب، ويبيح لنفسه النظر إلى محاسن وجهه ليتعرّف إلى ذاته بعد أن كان ضائعاً غير معروف[1]:

ولقد خلوت مع الحبيب وبيننا

سرٌّ أرقُّ من النسيم إذا سرى

وأباح طرفي نظرةً أمّلتها

فغدوت معروفاً وكنت منكراً

فدهشت بين جماله وجلاله

وغدا لسان الحال عنّي مخبرا

فأدر لحاظك في محاسن وجهه

تلق جميع الحسن فيه مصوّرا

العين الحوراء:

أمّا العيون الدُّعج العربية الأصيلة التي تتصف بشدة السواد واتساعه مع سعة المقلة.

فقد حاول أبو حرزه جرير[2] أن يوحي بسحرها حين قال:

(1) ـ ديوان ابن الفارض ـ ص99.

(2) ـ أدونيس ـ ديوان الشعر العربي 416.

لقد تكتَّمت الهوى حتى تهَّيمني
لاأستطيع لهذا الحبِّ كِتمانا
إنَّ العيون التي في طرفها حورٌ
قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعْن ذا اللبِّ حتى لاحراك به
وهنَّ أضعف خلق الله إنسانا

ويقول الشاعر أبو هتَّان في المعنى ذاته(1):

أخو دنفٍ رمته فأقصدته
سهام من جفونك لاتطيش
فواتك لايقال سوى احورارٍ
بهنَّ ولاسوى الأهداب ريش
أصبن فؤاد مهجته فأضحى
سقيماً لايموت ولايعيش

العيون السود الطبيعية الجميلة هي التي انتشى العربي بلمحاتها، وتكحّلت عيناه بلحظاتها الساحرة.

لقد وضع العرب لهذه العيون كياناً جمالياً متعدّد المعاني والصفات اتخذوه مقياساً للجمال. وأهم تلك الصفات أوجزها المنذر الأكبر عندما أهدى إلى كسرى أنوشروان جاريةً، وكتب إليه

(1) ـ الأبشيهي ـ المستطرف من كلّ فن مستظرف ص406.

في وصف عينيها يقول (إنَّها زجّاء وطفاء، كحلاء، دعجاء، حوراء، عيناء).

فالزجج هو في الحاجبين دقة وطول كما وصفه خالد بن صفوان في نونيته المسمَّاة «العروس».

صفرٌ تراتبها زجٌ حواجبها

سودٌ ذوائبها كالحالك القاني

والوطف: غزارة الأهداب مع طول. فهو أوطف. وهي وطفاء. والعين الكحلاء: هي العين التي تبدو وكأنَّ الكحل فيها وهي من غير تكحُّل كعين الغزال.

يقول عبد الرحمن بن حسَّان وكان يشدو بغنائها ابن سريج:

وإنَّ عينيها لعينا جؤذر

أهدب الأشفار من حور البقر

تنكر الإثمد لاتعرفه

غير أن تسمع منه بخبر

والحور: شدة بياض المقلة مع شدة سوادها، والدعج في العينين شدة سواد الحدقة.

يقول خالد بن صفوان:

كحلاء في دعج عيناء في برج

نجلاء في زجج تسلو وتقلاني

ويقول العرب في أوصاف العيون وملحقاتها:

ظمياء العيون: رقيقة الجفون.

عين سجراء: أي بيِّنة السجر وهي أن يخالط بياضها حمره.

عين شكلاء: أي بيِّنة الشكل ويقال: أشكل أي طويل شق العين.

عين سبلاء: العين الطويلة الهدب.

عين شهلاء: الشهلة حمرة في سوادها.

البلج: نقاوة وتباعد مابين الحاجبين.

قال المسدود[1]:

باحورار العين والدعج   واحمرار الخدِّ في الضَّرج
وبتفاح الخدود وما   ضمَّ من مسكٍ ومن أرج
كن رقيق القلب إنَّك من   قتل من يهواك في حرج

لقد نفذت سهام العين إلى قلب المتنبي فجرحته جرحاً يشبه عينيها في السعة. وربما كان الرمح لايصل إليه بسبب وجود الدرع. ولكن الدرع لم تحصِّنه من نظرتها:

مثَّلتِ عَيْنَكِ في حشاي جراحةً
فتشابها كلتاهما نجلاء[2]

(1) - ابن عبد ربه - العقد الفريد - ج7 - ص39.

(2) - ديوان المتنبي - ج1 - ص14.

نفدت عليَّ السابري وربما

تندقُّ فيه الصعدة السمراء

أما عمر بن أبي ربيعة الذي قضى عمره مبهوراً بألوان الحسن فيقول:

ولن أنسى بخيف منى تسارق زينب النظر[1]

إلـيَّ بمـقـلـتـي ريمٍ ترى في طرفه حورا

دخل بعض الأعراب على ثعلب النحوي فقال[2]

أنشدني ياإمام الأدب أرقَّ شعر قالته العرب.

فقال لاأجد أرقَّ من قول جرير:

إنَّ العيون التي في طرفها حور

قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

يصر عن ذا اللبِّ حتى لاحَرَاك له

وهنَّ أضعف خلق الله إنسانا

فقال الإعرابي هذا شعر قد لاكته السَّفِلة بألسنتها هاتِ غيره.

فقال ثعلب: أفدنا مما عندك يا أخا العرب.

فقال الأعرابي:

قول مسلم صريع الغواني:

---

(1) ـ ديوان عمر بن أبي ربيعة 167.

(2) ـ بهاء الدين العاملي ـ الكشكول ـ ج2 ـ ص318.

نبارزُ أقران الوغى فنصدُّهم

ويغلبنا في السلم لحظ الكواعب

وليست سهام الحرب تُفني نفوسنا

ولكن سهامٌ فوّقت فوق الحواجب

فقال ثعلب لحضّار مجلسه:

اكتبوها على الحناجر؟

ولو بالخناجر؟

ومن طريف ما قاله الشاعر تميم بن المعز متغزلا[1]:

أباح لمقلتي السهرا وجار عليّ واقتدرا
غزال لو جرى نفسي عليه لذاب وانفطرا
ولكن عينه حشدت عليّ الغنج والحورا
ومن أودى به قمر فكيف يعاتب القمرا؟

ويروى أن الخليفة عبد المؤمن بن علي أمير دولة الموحدين في المغرب كان يسير يوماً بصحبة وزيره ابن عطيه في طرق مراكش فأطلّت جارية حسناء؛ فقال الخليفة مرتجلاً[2].

قدَّتْ فؤادي من الشباك إذ نظرت

فأجازه الوزير: حوراء ترنو إلي العشّاق بالمقل.

(1) ـ زهر الآداب ـ ج2 ـ ص186.

(2) ـ أحمد توفيق المدني ـ تاريخ افريقيا.

فقال عبد المؤمن: كأنما لحظها في قلب عاشقها.

فقال الوزير: سيف المؤيد عبد المؤمن بن علي.

ويتحدث الشاعر ابن الساعاتي عن علة الحدق وصحتها[1]:

لايغرنك بالسيف المضاء   فالظبا مانظرت منه الظباء

حدق صحتها علتها   ربما كان من الداء الدواء

ويصف ماتفعله سهام اللحظ:

وأحور من عينيه هاروت بابل

رمى فاتقينا نبله بالمقاتل

يدافع عن ألحاظه بجفونه

ولم أر جفناً صال دون المناصل

العيون الزرقاء:

عرف العرب اللون الأزرق في عيون الجواري والقيان منذ عهد الجاهلية عن طريق قوافل التجار التي كانت تحمل الرقيق من بلاد فارس وغيرها.

كما عرف العرب القدامى اللون الأزرق في عيون الغزاة الروم؛ ولذلك لم تأت أوصافها في شعر التراث إلّا نادراً.

كره العرب اللون الأزرق، والعيون الزرق فاتهموا أصحابها بالكذب واللؤم والشر.

---

(1) ـ د. عمر موسى باشا أدب الدول المتتابعة ـ ص541.

وكان اللون الأزرق في العيون علامة فارقة للأعجمي الرومي وكل أعجمي حتى قيل عن شديد العداوة «إنه عدو أزرق»[1].

ويقال في العدو «هو أزرق العين، وإن لم يكن أزرق».

هجا بشار بن برد العباس بن محمد العباسي أخا الخليفة أبا جعفر المنصور بقوله:

وللبخيل على أمواله علل

زرق العيون عليها أوجه سود

شبّه بشار العلل بحراس يتخذها البخيل على ماله، وتخيل لها أعيناً زرقاً ووجوهاً سوداً، كي تكتمل فيه الدمامة.

وهذا المعنى أخذه بشار من قوله تعالى في سورة طه آية «100» ﴿يوم ينفخ في الصور، ونحشر المجرمين زرقا﴾.

في تفسير الجلالين: معناه أن تكون عيونهم زرقاً ووجوههم سوداء؛ لأن وجوه المجرمين تسودُّ يوم القيامة.

ولم تخل أشعار العرب من وصم العين الزرقاء بالقباحة والحسد. من ذلك قول بشار:

تراخت في النعيم فلم ينلها

حواسد أعين الزرق القباح

ويتشاءم ابن الرومي من العيون الزرق فيقول في هجاء ابن طالب الكاتب:

(1) ـ ابن عبد ربه ـ العقد الفريد ـ ج3 ـ ص56.

أزيرق مشؤوم، أحيمر قاشر

لأصحابه نحس على القوم ثاقب

وهل يتمارى الناس في شؤم كاتب

لعينه لون السيف والسيف قابض

وقال ذو الرمة في ذم العيون الزرق:

زرق العيون إذا جاورتهم سرقوا

مايسرق العبد أو نابأتهم كذبوا

وكان التسري بالجميلات من روميات وفارسيات لحسن قوامهن، وبياض بشرتهن قد بدأت منذ الفتوحات الإسلامية.

قال عمر بن أبي ربيعة:

سحرتني الزرقاء من مارون

إنما السحر عند زرق العيون

سحرتني بجيدها وشتيت[1]

وبوجه ذي بهجة مسنون

فاللون المستحب عند العرب كان لدى المرأة ذات البشرة البيضاء الرقيقة أو البيضاء التي يضرب لونها بالغداة إلى الحمرة وبالعشية إلى الصفرة كما وصفها ذو الرمة:

بيضاء في دعج كحلاء في برج

كأنها فضة قد مسها ذهب

(1) ـ الجيد: العنق ـ الشتيت: الثغر الأفلج.

وجاء قوله تعالى:

﴿وعندهم قاصرات الطرف عين﴾ أي حسان الأعين لاينظرن إلّا إلى أزواجهن.

﴿كأنهن بيض مكنون﴾ الصافات آية 48 ـ 49.

وجاء في تفسيرها «كأنهن في اللون الأبيض بيض للنعام مستور بريش لايصل إليه غبار. ولونه البياض في صفرة.

فاللون الأصفر أحبه العرب. وجاء قوله تعالى:

﴿إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسرُّ الناظرين﴾ سورة البقرة.

ثم أخذت العيون الزرق[1] تتكاثر بين مشاهير العرب. فمروان بن الحكم والي المدينة المنورة كان أزرق العينين وسميت باسمه عين الزرقاء وهي عين الماء التي تقع جنوب غرب المدينة المنورة.

وفي العصر العباسي كان الكثير من الخلفاء من أمهات روميات وتركيات.

وكثيرات منهن كن زرق العيون.

ونلاحظ أن الشعراء الذين دافعوا عن زرقة العيون في ذلك الوقت.

شبهوا زرقة العين بزرقة عتاق الطير، أو زرقة حد السيف لابزرقة السماء كما درج على ذلك شعراء الغرب، وشعراؤنا المعاصرون لأنَّ السماء تتراءى لهم غالباً صافية زرقاء عبر الدهور.

(1) ـ الدكتور عبد الرحمن البابا ـ في أدب وطب العيون ـ ص32.

وفي الصحارى يطغى في الميزان جمال الغيوم في السماء على جمال الزرقة والصفاء.

يقول الوأواء الدمشقي(1):

يامن هو الماء في تكوين خلقته
ومن هو الخمر في أفعال مقلته
ومن بزرقة سيف اللحظ طلَّ دمي
والسيف ما فخره إلّا بزرقته
علّمت إنسان عيني أن يعوم فقد
جادت سباحته في بحر دمعته

وفي حديث ذكره أبو الفرج الأصفهاني في كتاب النساء قال:

قال رسول الله ﷺ:

«تزوَّجوا الزرق؛ فإنَّ فيهن يمناً»

وقال معاوية لصحّار العبدي:

«إنك لأزرق».

فقال له صحار:

والبازي أزرق.

أخذه الشاعر محمد بن وهب البصري البغدادي فقال:

(1) ـ الثعالبي ـ يتيمة الدهر ـ ج1 ـ ص288.

أحبك إن قالوا بعينك زرقة

كذاك عتاق الطير زرق عيونها

ولم يكن الشعر العربي القديم وحده حافلاً بذم العيون الزرقاء فقد لاحقتهم الأحاديث الموضوعة، والأمثال الشعبية.

ففي حديث من غير سند رواه الديلمي يقول:

«إياك والأشقر الأزرق فإنه من قرنه إلى قدمه مكر».

وفي أيامنا يقولون في الأمثال الشعبية:

«إياك والعيون الزرق والأسنان الفرق».

لكنَّ كراهية العيون الملوَّنة التي سادت في عصور الجاهلية والإسلام تحوَّلت إلى نقيض ماكانت عليه منذ بداية العصر الحديث. ومع أن وصف أعضاء المرأة الحسناء تضاءل في الشعر الحديث مع اتساع أفق الشعراء في تأملاتهم وأفكارهم وتأثرهم بالرومانسية الغربية والمذاهب الشعرية الكثيرة. فإنَّ حضور العيون الخضر الزرق أصبح واضحاً تزخر به روائع شعر الغزل الحديث.

يقول أمين نخلة في العيون الزرق(1):

غمَّس الريشة في البحر الذي

صوَّر العينين كاللجِّ الرقيق

فتح الماضي لعيني كوة

فأطلَّي أعذب الحب العتيق

(1) ـ أمين نخلة ـ الديوان الجديد ـ ص128.

وفي العيون الزرقاء الواسعة التي تحاكي بزرقتها لون السماء والبحر يقول الشاعر بدوي الجبل:

في مقلتيك سماوات يهدهدها
من أشقر النور أصفاه وأحلاه
ورنوة لك راح النجم يرشفها
حتى ترنح سكر في محياه
أطلَّ خلف الجفون الوطف موطنه
بعد الفراق فحيَّاه وفدَّاه
قلبي وللشقرة المغناج لهفته
ليت الحنين الذي أضناه أفناه
مدلَّه فيك ما ليل ونجمته
مولَّه فيك ماقيس وليلاه
يضيع عني وسيم من كواكبها
فحين أرنو إلى عينيك ألقاه

توحي العين بالبحر عمقاً واتساعاً وحركة وارتحالا. وعالم العيون عالم يختصر الطبيعة وكلَّما خاف الشاعر نزار قباني من الضياع أو الدوار سعى إلى أن يرسو في مرفأ عينيها الأزرق[1].

في مرفأ عينيك الأزرق

(1) ـ مجلة الموقف الأدبي ـ العدد 857 ـ عام 1975 ص38.

أركض كالطفل على الصخر

أستنشق رائحة البحر

وأعود كعصفور مرهق

في مرفأ عينيك الأزرق

تتكلم في الليل الأحجار

في دفتر عينيك المغلق

من خبّأ آلاف الأشعار

لو أني... لو أني بحار

لو أحد يمنحني زورق

أرسيت قلوعي كل مساء

في مرفأ عينيك الأزرق

الموج الأزرق في عينيك

يجرجرني نحو الأعمق

أزرق

أزرق

لاشيء سوى اللون الأزرق

وأنا ماعندي تجربة

في الحب ولاعندي زورق

اللون في العينين أغرق لون البحر. غير أن العيون بصفائها تقف فوق الزمن وربما قبل الزمن فهي نوع من الأزل:

أنـا عـيناك أنـا كـتبـتـهـمـا

قبل بدء البدء قبل الأعصر

أنا بعثرت نجومي فيـهـما

زمـر تـسـألـنـي عـن زمـر

ما المصابيح التي تغلي على

فتـحتي عينيك إلَّا فكـري

وتنفتح أمامنا أكوان تستجيب لها بصيرتنا كلما رأينا عينين زرقاوين بمثل هذا الجمال الذي رحل إليه الشاعر نزار قباني في «القصيدة البحرية».

وينسحق نزار قباني أمام قدره الضائع الفار من عينيها ليقف مع ماضيه وحاضره ومستقبله لحظة واحدة.

إني لأبحث في عينيك عن قدري

وعن وجودي ولكن لاأرى أحداً

ويستخدم للعيون مواصفات الفيروز ونيسان والليل والزنبق[1]:

وفي مرفأ عينيك الأزرق

يتساقط ثلج في تموز

(1) ـ مطانيوس ميخائيل ـ دراسات في الشعر العربي الحديث ـ الصفحات 149 ـ 158.

ومراكب حبلى بالفيروز

أغرقت البحر ولم تغرق

ويقول في قصيدة أخرى:

عيناك نيسانان... كيف أنا

أغتال في عينيك نيسانا؟

ومن الملاحظ أن رؤية اللون انتقلت من النظر إليه في نفسه إلى النظر إليه في أثره كمنبّه للنفس الإنسانية.

إن اللون دارسة ومفهوماً وطبيعة - تطوّر تطوراً واسعاً فإذا كان التقليديون ينظرون إلى اللون نظرة مادية في ذاته على أساس أنه حلية ترتبط بالشكل، فإن الأدباء في العصر الحديث أخذوا يرونه على أساس أنه قيمة تعبيرية ترتبط بمعنى العمل ومحتواه، وبتجربة صاحبه الوجدانية. أو هو على حد تعبير «خليل مطران» «صورة الوجدان»[1]:

فالأخضر: عنوان انبثاق الحياة والصحة ويرمز إلى الكون والطبيعة والربيع والشباب. والأزرق يشير إلى الهدوء والسكينة والامتداد العام الذي لايعرف الحدود.

يقول الدكتور ابراهيم ناجي:

أزرق العين هادئٌ هدأة البـ

حر بعيد الرضى بعيد القرار

(1) - د. نعيم اليافي - تطور الصورة الفنية في الشعر العربي الحديث - ص224.

أما اللونان الأبيض والأسود فقد أكثر من استعمالهما الشعراء وقابلوا بينهما باستمرار؛ فالأبيض يرمز إلى الصفاء والغبطة والنقاء والعفاف والسلم، والأسود عكس ذلك يوحي بالحزن والخطيئة والظلام والقساوة والصلادة.

العين الخضراء:

أصبحت العين في نظر الشعراء عالماً كبيراً بألوانه المختلفة تنسكب فيه زرقة السماء والبحار، أو خضرة المروج والكروم ويذوب فيه سواد الليل كحلاً، يناجيه القمر والنجوم، وتكمن وراءه الغوامض والأسرار.

العيون الخضراء يصفها الشاعر بدر شاكر السيّاب بقوله:

عيناك غابتا نخيلٍ ساعة السَّحر
أو شرفتان راح ينأى عنهما القمرْ
عيناك حين تبسمان تورق الكروم
وترقص الأضواءُ كالأقمار في نَهَرْ

إنَّها ذات مدى زيتي؛ بحيرة خضراء، عريشة كسلى تختصر الطبيعة، وتحتويها عطاءً ومشاوير، وصيفاً خيِّراً خصب المواسم.

المساء هادئٌ؛ لكنَّ فيه شلالاً، العينان هادئتان لكن فيهما ألوف الصور تنزلق عليهما، وبريق العينين يخطف انتباه الشاعر نزار قباني إلى مافيهما من انفتاحات على آفاق مديدة:

المساء شلَّالُ فيروزٍ ثري
وبعينيك ألوف الصورِ[1]
وأنا متنقِّل بينهما ضوء
عينيك وضوء القمر
وبعينيك مرايا اشتعلتْ
وبحارٌ وُلِدتْ من أبحر
وانفتاحاتٌ على صحوٍ على
جزرٍ ليست ببال الجُزرِ

اخضرار عينيها هو سرُّ اللون والضوء في الشرق والغرب[2]:

تُرى ياجميلة لولاك   هل ضجَّ بالورد دربُ
ولولا اخضرارٌ بعينيك   ثَرُّ المواعيد رحبُ
أيسبح بالضوء شرقٌ   أيغمر باللون غربُ

الخضرة الجميلة نراها في العيون التي وصفها الشاعر راشد حسين في قصيدته «القدس في عينين»:

لون عينيك نخيل   لون عينيك دوالِ
لون عينيك كحُبي القدس   غالِ ألف غال
وجريح لو عينيك كشعري

(1) ـ مجلة اللوتس ـ العدد 66/65 ـ عام 1988 ـ ص154.

(1) ـ نزار قباني ـ طفولة نهد ـ ص52.

وجميلٌ مثل حبي

وطويل كاعتقالي

لون عينيك أبي يزرع رماناً وتيناً

ويقول: ازرع، فما تزرعه يُضحي بنينا

ويغنّي ياليالي ياليالي

لون عينيك صلاح الدين من دون رجالِ

وعذابٌ لون عينيك لأشباه الرجال

لون عينيك حصادْ

لون عينيك بيادرْ

لون عينيك كفاحْ. وطني فيه مسافر

وصبورٌ لون عينيك كأمي

وكريم كسهولي، وأبيٌّ كجبالي

لون عينيك حمامٌ، ونسورٌ في نضالي

سعيد عقل زعيم المدرسة الجمالية في الشعر العربي يطالب أن يكون الجمال مطلقاً وغير محدود.

حلمُ أيِّ الجن؟ يا أغنيةً

عاش من وعد بها سحر الوتر(1)

(1) ـ رندلى ـ ص12.

والمرأة عنده رمز لجمال الوجود وعبقريته في الخلق والإبداع. إنَّه يشهق لاتِّساع عينيها[1]، وينقله الفتون والسحر من سنى الزنبق إلى ذراعيها ثم إلى أراجيح الهوى ومروج جفونها الخضر.

يكون أن أشهق
لكبر عينيها
ومن سنى الزنبق
إلى ذراعيها
ينقلني الفتون
ينقلني إلى الغوى
إلى أراجيح الهوى
إلى المروج الخضر في الجفون

(1) ـ مطانيوس ميخائيل ـ دراسات في الشعر العربي الحديث ـ ص149.

معايب العين[1]

الحَوَص: ضيق العينين.

الخَوَص: غئورها مع الضيق وغَلِظُ الجفن الأعلى.

الشَتَر: انقلاب الجفن.

العَمَش: أن تسيل العين وترمص.

الكَمَش: ألَّا يكاد يُبصر.

الغَطَش: شبه العمش.

الجهر: ألَّا يبصر نهاراً.

العشا: ألَّا يبصر ليلاً.

الخَزَر: أن ينظر بمؤخرة عينه. والخُزْرة: انقلاب الحدقة نحو حاظ.

الغَضَن: أن يكسر عينه حتى تتغضَّنَ جفونه.

القَبَل: أن يكون كأنَّه ينظر إلى أنفه وهو أهون من الحول.

الخَفَش: صِغر العينين وضعف البصر.

- أبو منصور الثعالبي - فقه اللغة وسرّ العربية - ص121 - 122.

الجَفَن: فسادٌ في العين يضيق له الجَفْنْ.

الدَّوش: ضيق العين وفساد البصر.

البخق: أن يذهب البصر والعين منفتحة.

الكَمَه: أن يولد الإنسان أعمى.

الشُّطور: أن تراه ينظر إليك وهو ينظر إلى غيرك.

الشَّوَص: أن ينظر بإحدى عينيه ويُميل وجهه في شق العين التي يريد أن ينظر بها.

الجحوظ: خروج المقلة وظهورها من الحجاج.

البَخَص: أن يكون فوق العينين أو تحتهما لحم ناتئ.

جاء في لسان العرب «الأحول الذي حولت عيناه جميعاً».

أمَّا إذا أقبلت إحدى الحدقتين على الأخرى فهو أقبل، والمرأة قبلاء.

ويقالُ أقبل عينه، أي صيَّرها قبلاء.

إذا أقبل سواده على الأنف فهو أقبل (حول متقارب) فإذا أقبل على الصدغين فهو أخزر (حول متباعد).

وصاحب العين الحولاء يخدع الرقيب بنظره، فلقد كان أبو العيناء الشاعر الأحول يجد في حول عينيه مايحمد الله عليه:

حمدت إلهي إذ بلاني بحبِّها

على حَوَلٍ يغني عن النظر الشزرِ

نظرتُ إليها والرقيب يخالني

نظرت إليه فاسترحت من الغدرِ

ويقول مزاحم العقيلي(1):

أفي كلِّ يوم أنت من لاعج الهوى

إلى الشُمِّ من أعلام ميلاءَ ناظرُ

بعمشاءَ من طول البكاء كأنّما

بها رمدٌ أو طرفها متخازر

تمنّى المنى حتى إذا ملَّت المنى

جرى واكفٌ من دمعها متبادرُ

وقد تصاب العين بالعشى من كثرة البكاء.

يقول أبو بكر محمد بن زُهر الإشبيلي(2):

ما لعيني عشيتْ بالنظرِ

أنكرت بعدك ضوء القمر

وإذا ماشئت فاسمع خبري

عشيت عيناي من طول البكا

وبكى بعضي على بعضي معي

وأنشد الثعالبي في فقه اللغة:

(1) ـ ديوان الشعر العربي، أدونيس ص460.

(2) ـ د. جودت الركابي ـ في الأدب الأندلسي ـ ص322.

أشتهي في الطفلة القبلا

لاكـثـيـراً يـشـبـه الحوَلا

وثمضة قصةٌ تُروى عن تطيُّر ابن الرومي. من ذلك أنَّه حضر مهرجاناً شهدته قينتان إحداهنَّ حولاء والثانية عجوز في عينها نُكتة. فتطيَّر من ذلك. وحدث أن سقطت ابنة صاحب المهرجان عن السطح. فعزا ذلك إلى المغنِّيتين:

أيُّها المحتفي بحولٍ وعورٍ

أين كانت منك الوجوه الحسانُ

فتحُك المهرجان بالحول والعو

ر أرانا ما أعقب المهرجانُ

كان من ذلك فقدُك ابنتك

الحرَّة مصبوغة بها الأجفانُ

ولقد كان أعوران يمشيان معاً فقال أحدهما:

أياسره فيفصلنا المعرّي أيامُنه فيجمعنا جرير

ونذهب بيننا رجلٌ ضريرٌ ونرجع بيننا رجلٌ بصير

ورُوي عن أبي حاتم قال:

رمي رجل أعور بنشَّابه، فأصابت عينه الصحيحة قال «أمسينا وأمسى الملك لله».

كما رُوي عن الزبير بن بكار قال:

جاءت امرأةٌ إلى الزبير تستعدي على زوجها، وتزعم أنَّه يصيب جاريتها. فأمر به فأحضر، فسأله عمَّا ادعَّت؟

فقال هي سوداء، وجاريتها سوداء، وفي بصري ضعف، ويضرب الله برواقه. فأنا آخذٌ من دنا مني.

ويرى المتنبي أنَّ العين قد تنكر ضوء الشمس من رمدٍ بها أصابها:

قد تنكر العينُ ضوءَ الشمس من رمدٍ

وينكر الفم طعم الماء من سقم

وإذا كان ضيق العين يعدُّ من المعايب، فإن الشعراء في عصور الدول المتتابعة تغزَّلوا بالأتراك والأكراد. فهذا فتيان الشاغوري يتحدَّث عن حبيب ما أبى باللحظ سفك دمه[1]:

أفدي الذي ما أبى باللحظ سفك دمي

لكن متى طلبت العطف منه أبى

ظبيٌ من الترك أصمتني لواحظه

وأسهم الترك إن أصمتْ فلا عجبا

ويتحدَّث الشاعر ابن عنين عن صغر العينين، وضيق المقل وهذا المعنى جديد في شعرنا العربي. وقد ألمَّ به في مطلع قصائده:

(1) ـ ديوان ابن عنين ـ ص34.

لاتعرضِنَّ لضيق المقلِ   فتبيت من أمنٍ على وجلِ
واترك ظباء الترك سانحة   لاتعترض لحبائلِ الأجلِ

ويُلاحظ أن بعض الشعراء الذين شهدوا الحروب الصليبية وتنقّلوا في الثغور المحتلة اتجهوا وجهة جديدة لم نعرفها من قبل في الشعر العربي.

حتى إنَّ شاعراً كابن القيسراني قصر طائفة من أجمل شعره على التحدُّث عن الفرنجيات. وسمَّى قصائده المذكورة «النفريات».

العين الحاسدة

عرّفها ابن خلدون بأنّها:

«تأثير نفس المعيان عندما يستحسن بعينه مدركاً من الذوات أو الأحوال، أو يفرط في استحسانه، أو ينشأ عن ذلك حينئذٍ أنّه يروم معه سلب ذلك الشيء عمن اتّصف به»[1].

وقيل هي نظر باستحباب مشوب بحسد، من خبيث الطبع يحصل للمنظور منه ضرر. أمّا الحسد فهو تمنّي زوال النعمة عن الآخرين، أو تمنّي عدم حصولها، وكلّ عائن حاسداً، وليس كلُّ حاسد عائناً.

وقد ربط الله تعالى مابين الحسد والسحر عندما أمرنا أن نتعوّذ منهما بقوله تعالى: ﴿من شرّ النفّاثات في العُقد، ومن شرّ حاسدٍ إذا حسد﴾.

فالنفّاثات: هنّ السواحر اللواتي يعقدن في سحرهن وينفثن في عقدهن.

واقتران الحسد بالسحر في هذه الآية يشير إلى وجود علاقة بينهما. ولعلّ هذه العلاقة هي التأثير الخفي الذي يكون من الساحر بالسحر، ومن الحاسد بالنظر مع اشتراكهما في عموم الضرر.

وقد أشار القرآن الكريم إلى تأثير العين بقوله تعالى:

(1) ـ المقدمة /556/.

﴿وإن يكادُ الذين كفروا ليُزلقونك بأبصارهم لمَّا سمعوا الذكر، ويقولون إنَّه لمجنون﴾[1]

تقول العرب رجلٌ مَعَين ومعيون إذا أُخِذ بالعين. وتقول العرب[2]:

«إنَّ العين تسرع بالإبل إلى أوصامها، وبالرجال إلى أسقامها».

وقال النبي ﷺ «لو سبق القدر شيءٌ لسبقته العين. إنَّ العين حق».

وفي الحديث عن جابر قال: قال النبي ﷺ «إنَّ العين تدخل الرجل القبر، وتدخل الجمل القدر» رواه أبو نعيم.

والجاحظ[3] لايُنكر أن ينفصل من العين الصائبة إلى الشيء المستحسن أجزاء لطيفة تتصل به، وتؤثّر فيه. فيكون هذا المعنى خاصية في بعض الأعين كالخواص في الأشياء.

وبهذا الصدد قال الأصمعي:

رأيت رجلاً عيوناً سمع بقرةً تُحلب فأعجبه سخبُها.

فقال: أيّتهنَّ هذه؟ فقالوا «البقرة أخرى يورون عنها فهلكتا».

قال الأصمعي: وسمعته يقول:

إذا رأيت الشيء يعجبني وجدت حرارة تخرج من عيني. ومما يُروى أنَّ العرب قديماً قبل الإسلام كان الرجل منهم إذا أراد أن يصيب

(1) - سورة القلم آية 51.

(2) - ابن عبد ربه - العقد الفريد ج7 ص286.

(3) - الطبرسي - مجمع البان ج5 ص245.

صاحبه بالعين تجوّع ثلاثة أيام، ثم كان يصفه فيصرعه بذلك[1] وبهذا المعنى يقول الشاعر العربي:

ترميك مزلقة العيون بطرفها
وتكلّ عنك نصالُ نبل الرامي

وقال آخر[2]:

يتقارنون إذا التقوا في مجلس
نظراً يزلّ مواطن الأقدام

وقال آخر:

وجاؤوا إليه بالتعاويذ والرُقى
فصبّوا عليه الماء من شدّة النُكس
وقالوا به من أعين الجن نظرةٌ
ولو أنصفوا قالوا به أعين الأنس

وقد نقل المسعودي عن الجاحظ أنّ البومة لاتخرج بالنهار خوفاً من العين لأنّها تظنّ أنّها حسناء..

وخوفاً من عيون الحسّاد عمد الشاعر ديك الجن الحمصي إلى قتل جاريته، وبعد ذلك ندم على مافعل[3].

ياطلعةً طلع الحِمام عليها
وجنى لها ثمر الردى بيديها

(1) ـ الطبرسي ـ مجمع البان ج1 ص241.
(2) ـ القرطبي ـ الجامع لأحكام القرآن ج1 ص161.
(3) ـ ديوان ديك الجن الحمصي.

رَوَّيتُ من دمها الثرى ولطالما

رَوَّى الهوى شفتيَّ من شفتيها

فوحقِ نعليها وماوطئ الحصى

شيءٌ أعزُّ عليَّ من نعليها

ماكان قتليها لأنّي لم أكن

أخشى إذا سقط الغبار عليها

لكن ضننتُ على العيون بحسنها

وأنفتُ من نظر الحسود إليها

ولقد كان الشعراء العرب يحسبون حساباً لأعين الرقباء والواشين.

والوشاة فصلٌ في قصة كلِّ حب.

وهل يفعل الناس إلّا أن يراقبوا الناس؟

ولذلك كانوا يعتمدون على إشارات العيون التي تحدِّث بلغة لايفهمها إلّا أصحابها.

وللعين في شعر «أبي نواس» حقّ على كلِّ راءٍ يخشع للمحاسن[1].

ياتاركي جسداً بغير فؤاد

أسرفت في هجري وفي إبعادي

إن كان يمنعك الزيارة أعينٌ

فادخل إليَّ بعلَّة العوَّاد

(1) ـ د. علي شلق ـ العين في الشعر العربي ص37.

إنَّ القلوب مع العيون إذا جنت

جاءت بليّتها على الأجساد

وجميلات «عمر بن أبي ربيعة» كثيرات، وأكثر منهن نظراته بين المحصَّب من منى.

ولدى كلِّ ملتمع بهاء؛ غير أنَّ رائعته في «نعم» أنست الرواة عناية الأفواه بالمعلَّقات:

وترنو إليَّ. بعينيها كما رنا

إلى ربرب وسط الخميلة جؤذر(1)

إذا جئت فامنح طرفك غيرنا

لكي يحسبوا أنَّ الهوى حيث تنظر

ثم يقول:

ولما التقينا بالثنَّية أومضت

مخافة عين الكاشح المتنمِّم

أشارت بطرف العين خشية أهلها

إشارة محزون ولم تتكلَّم

فأيقنت أنَّ الطرف قد قال: مرحباً

وأهلاً وسهلاً بالحبيب المتَّيم

(1) ـ د. علي شلق ـ العين في الشعر العربي ص37.

ومن لطيف ما أورده ابن المعتز انتظاره غفلة الرقيب لتسرق عينه نظراً جديداً[1]:

أردُّ الطرف من حذري عليه

وأمنحه التجنُّب والصدودا

وأرصد غفلة الرقباء عنه

لتسرق مقلتي نظراً جديدا

العيون الحاسدة عيون تعرَّت من قيم الجمال الروحية واستحالت عيوناً فارغةً دأبها أن لاتغرِّد الطيور، وأن تذبل الورود.

تودُّ لو تستلَّ من الطير المغرِّد روحه، ومن الشجر الورق الجذور.

ذكر عن بعض العائنين أنه كانت تمرُّ به الناقة السمينة فيعينها ثم يقول لخادمه:

خذ المكتل والدرهم وائتني بشيءٍ من لحمها. فما تبرح حتى تقع فتُنحر.

ولابدَّ من الصبر على كيد الحسود، وعدم الاهتمام به.

فالحاسد ـ في الغالب ـ لايتمتَّع بحياةٍ سعيدة، لأنَّه مشغول دائماً بحقده وحسده. قال الشاعر:

اصبر على كيد الحسو د، فإنَّ صبرك قاتله

فالنارُ تأكل نفسها إن لم تجد ماتأكلُه

(1) ـ د. علي شلق ـ العين في الشعر العربي ص84

والعين تسرق وتنهب على حدٌ تعبير الشاعر مان الموسوس[1].

من الظِّباء ظباءُ همُّها السُّخُبُ

وحَليبها الدرُّ والياقوت والذهبُ

ياحسن ماسرقت عيني وما انتهبت

والعين تسرقُ أحياناً وتنتهب

إذا يدٌ سرقت فالحدُّ يقطعها

والحدُّ في سرقة العينين لايجب

وشرُّ العيون عند العرب هي خائنة الأعين التي تسارق النظر إلى الأشياء المحرّمة.

قال تعالى: ﴿يعلم خائنة الأعين وماتخفي الصدور﴾ سورة غافر آية 20.

يُروى أن أعرابية مرّت بجماعةٍ من بني نمير، فأداموا لها النظر فقالت:

يا بني نمير مافعلتم بقول الله تعالى: ﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم﴾؟

ويقول الشاعر:

فغضِّ الطرف إنَّك من نميرٍ

فلا كعباً بلغت ولاكلابا

(1) ـ ابن عبد ربه ـ العقد الفريد ـ ج7 ـ ص162.

ولو وُزِنتْ حلوم بني نمير
على الميزان ماوزنت ذبابا

والشاعر حاتم الطائي يفتخر بأنّه يغضّ البصر عن جارات قومه فلا ينظر إليهن بسوء[1].

وماضرَّ جاراً يا ابنة القوم فاعلمي
يجاورني أن لايكون له سترُ
بعينيَّ عن جارات قومي غفلةٌ
وفي السمع مني عن حديثهم وقرُ

وقد ورد في القرآن الكريم آية تخاطب المؤمنين وتطالبهم بغض البصر:

﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم﴾

ومن الملاحظ أنّ الآية استعملت كلمة «الأبصار» التي هي جمع «البصر».

وهناك فرق في الدلالة بين كلمة «بصر» وكلمة «عين».

فكلاهما يطلق على العضو الباصر؛ غير أنّ كلمة «عين» تطلق دون أن تتضمَّن دلالة على الإبصار، ولذلك استخدمت الآية كلمة «الأبصار» لا «العيون».

(1) ـ مصطفى طلاس ـ مختارات شعرية ـ ص54.

واستعملت الآية كلمةً أخرى، وهي «يغضوا» ومادتها «الغض» ولم تستخدم كلمة (غمض) لأنَّ الغمض يعني إطباق الجفون.

أمَّا «غضَّ» فتستعمل مع البصر والنظر والطرف عادةً.

والغض يعني تخفيف النظر، وعدم تركيزه[1].

ورُوي عن المعلَّى الصوفي[2] قوله: شكوت إلى بعض الزهَّاد فساداً أجده في قلبي فقال: هل نظرتَ إلى شيء فتاقت إليه نفسك؟ قلت: نعم.

قال: احفظ عينيك؛ فإنك إن أطلقتهما أوقعتاك في مكروه، وإن ملكتهما ملكت سائر جوارحك.

إياك والنظر إلى كلِّ مادعاك إليه طرفك، وشوَّقك إليه قلبك.

(1) ـ مرتضى المطهّري ـ ترجمة حيدر آل حيدر «مسألة 1 الحجاب» ـ ص95.

(2) ـ الأب لويس شيخو اليسوعي ـ مجاني الأدب ـ جـ2 ـ ص27.

العين العمياء

البصرُ أغلى النعم؛ لكنَّه يرخص أمام نعمة الحياة.

هناك من ولد عديم البصر، أو فقد بصره خلال حياته فبقي متمسكاً بغريزة البقاء، وعانق الحياة وأحبَّها كما يحبُّها المبصرون.

وهناك من فقد البصر، فأضاع معه الأمل، وضاعت في نفسه معاني الوجود.

يقول ناصر الدين شافع علي الكناني العسقلاني وكان أديباً وشاعراً مصرياً:

أضحى وجودي برغمي في الورى عدماً
إذ ليس فيهم وردٌ ولاصدرُ
عدمتُ عينيّ ومالي فيهما أثر
فهل وجود ولاعين ولابصرُ

وقد قرن القرآن الكريم البصر بالبصيرة لفظاً ومعنى. قال تعالى:

﴿قد جاءكم بصائر من ربكم، فمن أبصر فلنفسه، ومن عمي فعليها﴾.

فالبصر كاملاً هو رؤية الأشياء بأبعادها، ويستوي فيه الإنسان والحيوان.

بل إنَّ حدة بصر البزاة والنسور والصقور تفوق مرات عديدة بصر الإنسان.

أمَّا البصيرة فهي رؤية معاني الأشياء، وإدراك حقائقها بالعقل الذي يتميَّز به الإنسان وحده.

يقول الأديب ميخائيل نعيمة في كتابه البيادر: «من أكمل كمالات العربية وأسماها تمييزها مابين البصيرة والبصر، وجعلها الكلمتين فرعين من أرومةٍ واحدة بل توأمين من بطن واحد. لكنَّ ذاك الفرع غير هذا». ثم يقول: «البصر ومركزه العين يحصر كلَّ همِّه في التقاط أشكال الأشياء وألوانها. في حين أنَّ البصيرة، ومركزها القلب، أو الوجدان، همُّها الوصول إلى بواطن الأشياء دون التلهِّي بمظاهرها، فالاثنان يدأبان وراء المعرفة».

والعمى في منطق الإسلام هو عمى القلوب التي في الصدور، أو هو العَمَه في البصيرة.

وقد عبَّر كثير من الشعراء العرب المكفوفين عن هذا الرأي بوضوح:

فعبد الله بن العبَّاس ابن عم النبي ﷺ قال بعد أن كفَّ بصره:

إن يأخذ الله من عينيَّ نورهما

ففي لساني وسمعي منهما نور

قلبي ذكي وعقلي غير ذي دَخلٍ

وفي فمي صارم كالسيف مأثور

وقال الشاعر أبو يعقوب الخريمي:

فإن يك عيني قد خبا نورها

فكم قبلها نور عين خبا

فلم يعم قلبي ولكنَّما

أرى نور عيني لقلبي سعى

إنَّ نور العين إذا خبا ذهب إلى القلب. هذا ماقاله أيضاً أحمد بن عبد الله الدائم:

إن يذهب الله من عينيَّ نورهما

فإنَّ قلبي بصير مابه ضررُ

أرى بقلبي دنياي وآخرتي

والقلب يدرك مالايدركُ البصر

قيل لبشَّار بن برد وقد أنشد قوله:

كأنَّ مثار النقع فوق رؤوسنا

وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

ما قال أحد أحسن من هذا التشبيه، فمن أين لك هذا ولم ترَ الدنيا قط ولاشيئاً منها؟ فقال؛ «إنَّ عدم النظر يقوِّي ذكاء القلب، ويقطع عنه الشغل بما ينظر إليه من الأشياء؛ فيتوَّفز حسُّه، وتَّتقد قريحته»، ثم

والشاعر المنتجب العاني يتساءل[1]:

وما أخو عينين وهو أعورُ؟

وميّت حي وأعمى مبصر؟

وهو يريد بالأعور ذي العينين الأعمى عن النجدين.

والميّت الحي: هو حي الجسم ميّت الفؤاد عن سبل الرشاد.

ومثله قوله للضال:

فابك الغداة بدمعٍ إن بكيت على

أعمى بصيرٍ له في الرأس عينان

الرؤية الجزئية هي رؤية الباصرة، والرؤية الكبرى الكلّية هي رؤية البصيرة وماقيمة البصر إذا انطفأت البصيرة؟

وما انتفاع أخي الدنيا بناظره

إذا استوت عنده الأنوار والظُلَم[2]

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي

وأسمعت كلماتي من به صممُ

ومن طريف ماقاله الشاعر على لسان أعمى[3]:

(1) ـ د. أسعد علي ـ فن المنتجب العاني ـ ص222.
(2) ـ د. علي شلق ـ العين في الشعر العربي ص75.
(3) ـ الأب لويس شيخو اليسوعي ـ مجاني الأدب ـ ج2 ـ ص164.

سمعت أعمى مرةً قائلاً

ياقوم ما أصعب فقد البصر

أجابه الأعور من خلفه

عندي من ذلك نصف الخبر

الفصل الخامس

- معاني البكاء الإنسانية
- شيخوخة العين
- أفعال العين وتأثيراتها

«جولة فنية في آفاق العين»

من معاني البكاء الإنسانية

من أروع وأصدق الأشعار التي تجسّد المعاني في تفسير البكاء أبيات لابن الرومي قالها في وفاة ولده. فلقد أجهش بالبكاء وقال مخاطباً عينيه الباكيتين.

إنَّ البكاء شفاء للنفس الحزينة ولكنَّه لايردُّ مفقوداً:

بكاؤكما يشفي وإن كان لايجدي

فجودا فقد أودى نظيركما عندي

فالدمع لم يُخْلَقْ في جفن امرئٍ عبثاً:

لم يخلق الدمع في جفن امرئٍ عبثاً

إنَّ البكاء لموجوع ومحروب

لم يخلق الدمع لامرئٍ عبثاً

الـلـه أدرى بـلـوعـة الحزن

عن أسامة بن زيد أنَّ رسول الله ﷺ عندما رفع إليه ابن ابنته وهو في الموت إذ فاضت عيناه بالدمع، فقيل له ماهذا يارسول الله؟ فأجاب:

«هذه رحمة الله جعلهما في قلوب عباده، وإنَّما يرحم الله من عباده الرحماء».

في الدموع ضعف وقوة، فهي عند الثكالى صرخة في وجه العذاب.

وهي جوهر البلاغة إذا تعرّض النطق للاغتيال.

هي انبعاث النور في مبسم الفجر، وقوس قزح بين الغيوم وقطرات ندى علي شواطئ الضنى في غابات الحنين، ومحنة النفس إذا استدرّ الدمع ذلَّ الهوى، ومذلَّة السؤال.

فقد يكون البكاء سبباً في استدرار العطف للحفاظ على العهد.

يقول الشاعر قيس بن الحِدَّادية(1):

وقالت وعيناها تفيضان عَبرةً

بأهليَ بيِّن لي متى أنت راجعُ؟

فقلت لها: بالله يدري مسافرٌ

إذا أضمرته الأرض ما الله صانعُ

فشدَّت على فيها اللثام وأعرضت

وأقبل بالكُحل السحيق المدامعُ

إنِّي لعهد الودِّ راعٍ وإنَّني

بوصلِك مالم يطوني الموت، طامعُ

لم يُخلَقِ الدمع في جفن امرىءٍ عبثاً، فالشاعر العباس بن الأحنف تسيل دموعه حينما رأى السيل قادماً من وادٍ قريب من المكان الذي يسكنه الحبيب:

(1) ـ أدونيس ـ ديوان الشعر العربي ـ ص106.

يقول:

جرى السيل فاستبكاني السيلُ إذ جرى
وفاضت له من مقلتيَّ غُروبُ
وما ذاك إلّا حين خبِّرت أنَّه
يمرُّ بوادٍ أنت منه قريبُ
يكون أجاجاً ماؤه فإذا انتهى
إليكم تلقَّى طيبكم فيطيبُ
فياساكني شرقِّي دجلة كلُّكم
إلى القلب من أجل الحبيب حبيبُ

إنَّ لوعة القلب تستدرُّ عصي الدمع؛ وهذه جنايات العيون.

يقول البحتري[1]:

بعينكِ لوعة القلب الرهين
وفرط تتابعِ الدمعِ الهتونِ
نظرتُ وكم نظرتُ فأقصدَتْني
فجاءاتُ البدورِ على الغصونِ
وربَّت نظرةٍ أقلعتُ عنها
بسكرٍ في التصابي أو جنونِ

(1) ـ ديوان البحتري ـ ص133.

فيالله ماتلقى القلوبُ الهوا

ثمّ من جناياتِ العيون

فقد تساهم الدموع في إطفاء لهيب القلب الذي يتحرّق شوقاً للقاء المحبوب والظفر منه بكمال الوصال ونعيمه.

يقول الشاعر الصوفي «المنتجب العاني»[1]:

إن كنت لي صاحباً قف لي بهبُّودِ

وقل لعينك في أطلالها جودي

عسى الدموع إذا انهلّت غواربُها

تُطفي لهيب سليب اللبِّ معمود

تخالفتْ زفراتي والدموع بها

فهنّ مابين تصويب وتصعيدِ

وهو يرى أنّ العاشق لايلام إذا أضناه حبّه، وتقرّحت من البكا عيناه:

فلا تلم من شفّه جواه

وقرّحت من البكا عيناه

ونلاحظ هنا صورة التأثّر الشديد الذي يعانيه العاشق وتتجلّى الصورة النفسية حيّة في العينين المجرّحتين من كثرة البكاء وحدَّته (قُرّحت).

(1) ـ فن المنتجب العاني ـ د. أسعد علي ـ 232.

والشاعر قيس بن الملوح[1] يرى أنَّ محبوبته هي سبب هيمانه وبكائه الدائم:

معذبتي لولاك ماكنت هائماً
أبيت سخين العين حرّان باكيا
فأنت التي إن شئت أشقيت عيشتي
وأنت التي إن شئت أنعمت باليا

أمّا الشاعر «نصيّب» فله في قلق العين العاشقة ساعة الهجر وعند التلاقي مايحمّلنا همه ولو بعد مئات السنين:

ومافي الأرض أشقى من محبٍّ
وإن وجد الهوى حلو المذاق
تراه باكياً أبداً حزيناً
مخافة فرقةٍ أو لاشتياق
فيبكي إن نأوا شوقاً إليهم
ويبكي إن دنوا خوف الفراق
فتسخن عينه عند التنائي
وتسخن عينه عند التلاقي

(1) ـ مصطفى طلاس ـ مختارات شعرية ـ ص122.

ومن أعجب ماقيل في الدمع مانُسب إلى السري[1]:

بنفسي من ردَّ التحية ضاحكاً
فجدَّد بعد اليأس في الوصل مطمعي
إذا ماأبدى الغرامُ سرائري
وأظهر للعذَّال مابين أضلعي
وحالت دموع العين بيني وبينها
كأنَّ دموع العين تعشقه معي

وقول ماني الموسوس:

بكت عيني غداة البين دمعاً
وأخرى بالبكاء بخلت علينا
فعاتبت التي بخلت علينا
بأن أغمضتها يوم التقينا

(1) ـ أبو هلال العسكري ـ ديوان المعاني ـ 264.

شيخوخة العين

في فصل الخريف تذبل الورود، وتصفرٌّ أوراق الشجر.

وفي خريف العمر يسري الكلل والوهن في خلايا وأعضاء الإنسان، وتشيخ العيون، ويضعف البصر. تلك هي سنة الوجود؟

وهاهو شاعر الشباب أحمد رامي يأخذ دوره في ملعب الحياة بعد أن ولّى عنه الشباب فوقف قبل وفاته على المنحنى مرتعشاً يخشى الانزلاق وراح يعبّر عن آخر مرحلة من مراحل العمر مجيباً على المتسائلين:

يقولون ماهذا الشحوب الذي نرى
بوجهك بل ماهذه النظراتُ
فقلت لهم: إنّي دفنت نضارتي
وقد ضربت في قلبي الظلماتُ
تشرّد لحظي ثم غشّته ترحةٌ
كما غشيت شمس الضحى المزناتُ
لقد كان برّاقاً وقد كان ضاحكاً
فراح بريق اللحظ والضحكاتُ

وإذا بلغ الإنسان أرذل العمر راح البصر يخبو شيئاً فشيئاً وليس من سبيل إلى إعادة نضارته وتألُّقه.

ويتطلَّع الإنسان العجوز أمامه وهو ينطلق متعثِّراً في خريف العمر.

فإذا رأى لايرى سوى شمس وجوده تجري مسرعةً نحو الغروب ويتمثَّل قول أبي حازم الباهلي:

ولّى الشباب فخلٌّ الدمع ينهمل

فقد الشباب بعقد الروح متَّصلُ

أفعال العين وتأثيراتها «جولة فنية في آفاق العين»

في ظلال العينين يتعلّم الإنسان معنى الحب، وتبسط الأزاهر أيديها للنسيم، ويرقص العشب على إيقاع الندى.

يقول المتنبي:

لعينيك مايلقى الفؤاد ومالقي

وللحبِّ مالم يبقَ مني ومابقي

وماكنت ممن يدخل العشق قلبه

ولكنَّ من يبصر جفونك يعشق

وفي قصيدة، نهج البردة[1] لأمير الشعراء أحمد شوقي نرى الشاعر يستغيث بالمقتول للقاتل ويستنجد بالغزال للسّبع:

ريمٌ على القاعِ بين البانِ والعلمِ

أحلَّ سفك دمي في الأشهر الحرمِ

رمى القضاء بعيني جؤذر أسداً

ياساكن القاع أدرك ساكن الأجمِ

(1) ـ أحمد شوقي ـ الشوقيات ـ المجلد الأول ـ ص190.

لما رنا حدَّثتني النفس قائلةً

ياويح جنبك بالسهم المصيب رُمي

ياناعس الطرف لاذقت الهوى أبداً

أسهرت مضناك في حفظ الهوى فنمِ

الحسن في الحدق الرواني، وسرُّ السعادة في الدنيا تجلوه عينان على حدٍّ تعبير الشاعر بدوي الجبل:

ويانفسي عبدتك عن يقينٍ

وحسبي قد عبدت بك الإلها

أحب الحسن في الحدق الرواني

وفي ثغر الفتاة وفي لماها

سر السعادة في الدنيا وإن خفيت

تجلوه منك على الأكوان عينان

آمنت بالحب ماشاءت عذوبته

آمنت بالحب فهو الهادم الباني

وحين يزور الطيف المحبوب أجفان الشاعر يرتفع على أجنحة الهوى إلى عالم مسحور من رؤى العينين:

رفعتني بجناحي قدرةٍ وهوى

لعالم من رؤى عينيك مسحور

تعبٌ من حسنه عيني فإن سكرت
أغفت على سندسي من أساطير
أخادع النوم إشفاقاً على حُلُمٍ
حانٍ على الشفة اللمياء مخمور
وزار طيفك أجفاني فعطَّرها
ياللطيوف الغريرات المعاطير

والعيون لاتبوح بما خبَّأته من أسرار القدر في طيّات أهدابها التي تجاري المدى في ابتكار الكون تلو الكون:

يقول الشاعر سعيد عقل:

ألعينيك تأنّى وخطر
يفرش الضوءَ على التلِّ القمرْ[1]
ضاحكاً للغصن مرتاحاً
إلى ضفَّة النهر، رفيقاً بالحجر
علَّ عينيك إذا آنستا
أثراً منه عرا الليل خدر
من تُرى أنت إذا بُحت بما
خبَّأت عيناك من سرٍّ القدر

(1) ـ سليمان العيسى ـ حب وبطولة.

نسج أجفانك من خيط السهى
كلُّ جفن ظلَّ دهراً يُنتظر
مـفـردٌ لحظُـك إن سرَّحـتـه
طار بالأرض جناح من زهر
وإذا هـدبـك جـاراه المدى
راح كون تلو كونٍ يبتكرْ

تفتك سهامها في قلب المحب فيجيب ابن المعتز:

قالوا اشتكت عينه فقلت لهم
من كثرة الفتك نالها الوصبُ
حمرتها من دماءِ من قتلتْ
والدم في النصل شاهد عجبُ

ويقول آخر:

قالوا الحبيب شكا. جُعِلْتَ فداءه
رمداً أضرَّ بعينه كـالعـنـدم
فأجبتهم مازال يفتك لحظه
في مهجتي حتى تلطَّخ بالدم

ويطالب الشاعر أحمد شوقي محبوبه بأن يقف عند حدِّه وأن يُغمد سيف لحظه ألا يمكنُ إعلان هدنةٍ مؤقَّتةٍ[1]:

(1) ـ أحمد شوقي ـ الشوقيات ص121.

قف باللواحظ عند حدِّك يكفيك فتنةُ نار خدِّك
واجعل لغُمدك هدنةً إنَّ الحوادث ملءُ غمدك
نظرتْ إليك من الفتور وما اتَّقت سطوات حدِّك
أعلى روايات القنا ماكان نسبته لقدِّك

أين تقوى الله والتزام الحدود؟

لحظَها لحظها رويداً رويداً
كم إلى كم تكيد للروح كيدا[1]
كفَّ أو لاتكفَّ إنَّ بجنبيْ
لسهاماً أرسلْتَها لن تُردَّا
تصلُ الضرب ماأرى لك حدَّاً
فاتَّقِ الله، والتزم لك حدَّا
أو فصغ لي من الحجارة قلباً
ثم صغْ لي من الحدائد كِبدا

هذي الجفون القاتلة لاترحم؛ إنَّها جميلة تتهتَّك الألباب خلف حجابها فهي الشمس المنيرة في الأنوار تخطف الأفئدة والأبصار!!

في ذي الجفون صوارم الأقدار
راعي البرية يارعاك الباري

(1) ـ المرجع نفسه ـ ص117.

ماأنت في هذا الحلي إنسيةٌ

إن أنت إلا الشمس في الأنوار

تتهتّك الألباب خلف حجابها

مهما طلعت فكيف بالأبصار؟

وقد تفتك العين بسيوف لحظها فتريق دم العشاق ولاذنب لها في المحصلة. يقول الشاعر أبو الحسن علي بن عبد الغني الحصري في قصيدته المشهورة:

ياليل الصب متى غده   أقيام الساعة موعده؟
رقد السمار فأرّقه   أسف للبين يردّده
كلف بغزال ذي هيف   خوف الواشين يشرّده
نصبت عيناك له شركاً   في النوم فعزَّ تصيُّده
صاحٍ والخمر جنى فمه   سكران اللحظ معربده
ينضو من مقلته سيفاً   وكأن نعاساً يغمده
فيريق دم العشاق به   والويل لمن يتقلّده
كلا لاذنب لمن قتلت   عيناه ولم تقتل يده
يامن جحدت عيناه دمي   وعلى خديه تورُّده
خداك قد اعترفا بدمي   فعلام جفونك تجحده؟

إن السيوف لتنبو أحياناً فلا تستطيع أن تحقق الهدف ولكن

العيون تدمي القلوب بألحاظها القاتلة على حد تعبير شاعرنا البحتري[1]:

وغرير يلقى صبابة مزن
مدَّة الليل في صبابة كرم
بثٌّ عن راحتيه شارب خمر
وكأني للسكر شارب سمٍّ
وبحق إن السيوف لتنبو
تارة والعيون باللحظ تدمي

وقريب من هذا المعنى قول المتنبي[2]:

ولذا اسم أغطية العيون جفونها
من أنها عملَ السيوف عوامل

وقوله:

كلٌّ جريح ترجَّى سلامته
إلَّا فؤاداً دهته عيناها

كما أنها لاترى في شخص المحبوب إلا الحسن على حد تعبير عمر بن أبي ربيعة[3]:

(1) ـ ديوان البحتري ـ ص299.
(2) ـ ديوان المتنبي ـ ج3 ـ الصفحات 252 ـ 271.
(3) ـ شكري فيصل ـ تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام ص366.

ولقد قالت لجارات لها   وتعرّت ذات يوم تبترد
أكما ينعتني تبصرنني   عمركن الله أم لايقتصد
فتضاحكن وقد قلن لها   حسن في كل عين من تود
حسداً حمّلنه من أجلها   وقديماً كان في الناس الحسد
ولها عينان في طرفيهما   حور منها وفي الجيد غيد
كلما قلت متى ميعادنا؟   ضحكت هند وقالت بعد غد

ويقول ذو الرمة في محبوبته مية:

ومية أحسن الثقلين جيدا
وسالفة وأحسنهم قذالا
فلم أر مثلها نظراً وعيناً
ولا أمّ الغزال، ولا الغزالا

كما أن الشاعر المجنون تنكر عينه كل منظر بعد المحبوبة التي ملكت عليه سمعه وبصره فلم يعد يرى الحسن إلا فيها(1):

كأني أرى الناس المحبين بعدها
عصارة ماء الحنظل المتفلّق
فتنكر عيني بعدها كلّ منظر
ويكره سمعي بعدها كل منطق

(1) ـ أدونيس ـ ديوان الشعر العربي ـ ص276.

ويشير ابن الرومي إلى وقع سهام العين:

نظرت فأقصدت الفؤاد بسهمها
ثم انثنت عنه فكاد يهيم
ويلاه إن نظرت، وإن هي أعرضت
وقع السهام ونزعهن أليم

ويتحدث قيس عن سهام لبنى القاتلة التي لاتخطئ الهدف:

برت نبلها للصيد لبنى وريّشت
وريّشت أخرى مثلها وبريت
فلما رمتني أقصدتني بسهمها
وأخطأتها بالسهم حين رميت

ويرى البحتري أن العين باب إلى القلب[1]:

تزوّدت منها نظرة لم تجد بها
وقد يؤخذ العلق الممنّع بالغصب
وماكان حظ العين في ذاك مذهبي
ولكن رأيت العين باباً إلى القلب

ومن الطريف أنّ ابن المعتز يقارن بين ألوان الفتنة في الخدود والورود

(1) ـ ديوان البحتري ـ ج2 ـ 32 ـ (دار الكتب العلمية ـ لبنان).

والأصداغ والعيون ليقرر في النهاية أن فتن العيون أجل وأعظم من سواها:

ورد الخدود أرقُّ من ورد الرياض وأنعم
هذا تنشُّقُه الأنوف وذا يقبِّله الفم
وإذا عدلت فأفضل الور دين ورد يلثم
هذا يُشَمُّ ولايضمُّ وذا يُشمُّ ويضمم
سبحان من خلق الخدود شقائقاً تتبسَّم
وأعارها الأصداغ فهي بها شفيق يعلم
واستنطق الأجفان فهـ ـي بلحظها تتكلَّم
وتبين للمحبوب عن سر الحبيب فيفهم
وتشير إن رأت الرقيـ ـب بلحظها فتسلِّم
فتن العيون أجلُّ من فتن الخدود وأعظم

العيون تسقي الهوى الذي يدب في الجسم دبيب المدام.

يقول الشاعر الخاسر:

سقتني بعينيها الهوى وسقيتها
فدبَّ دبيب الخمر في كل مفصل

جاء أبو نواس بأروع منه بقوله:

أحبُّ اللوم فيها ليس إلا

لترداد اسمها فيها ألام
ويدخل حبها في كل قلب
مداخل لاتغلّقها المدام

وفي هذا الأفق قول المتنبي:

وللسرّ مني موضع لاينالة
نديم ولايفضي إليه شراب

العينان والقلب أعضاء في الجسم؛ ولكنها عند الأدباء شيء آخر، علم مستقل.

وقد تكون العينان سبباً في ابتلاء القلب بالهوى.

قال الأصمعي: تقدّمتُ إلى أعرابي يقال له إسماعيل بن عمّار. وإذا هو يفتل أصابعه، ويتلهّف. فقلت له: علام تتلهف؟ فأنشأ يقول[1]:

عيناي مشؤومتان ويحهما!!
والقلب حيران مبتلى بهما
عرّفتاه الهوى بظلمهما
ياليتني قبلهما عد متهما
هما إلى الحَيْنِ قادتا وهما
دلّ على ما أجنّ دمعهما

(1) ـ أمالي المرتضى ـ الجزء الأول ـ 499.

سأعذر القلب في هواه فما

سبَّب هذا البلاء غيرهما

وقد تسبِّب العين اندفاعاً إلى اقتراف الإثم، ودخول النار:

لما نظرتِ إليَّ عن حدق المها

وبسمتِ عن متفتِّح النوَّار

وعقدت بين قضيب بانٍ أهيف

وكثيب رمل عقدة الزنَّار

عفَّرتُ خدِّي في الثرى لك طائعا

وعزمت فيك على دخول النار

والعين تظهر مافي نفس صاحبها من بغض أو كراهية. فهذا قيس بن ذريح يتحدث عن الوشاة فيقول[1]:

أمسى وشاتك قد دبت عقاربها

وقد رموك بعين الغش وابتدروا

تريك أعينهم مافي صدورهم

إنَّ الصدور يؤدي غيبها النظر

والعين ترى مايشاء المحبوب لا مايشاء المحب يقول الشاعر بدوي الجبل:

(1) ـ أدونيس ـ ديوان الشعر العربي ـ ص292.

مدلَّه فيك مافجر ونجمته

مولَّه فيك ماقيس وليلاه

سكبت قلبك في وجدانه فرأت

يا عزُّ ما شئت لاماشاء عيناه

إن العين الذكية هي العين التي تعرف كيف تخدع الوشاة. يقول أبو الشيص:

إذا ماالتقينا والوشاة بمجلس

فليس لنا رسل سوى الطرف للطرف

فإن غفل الواشون فزت بنظرة

وإن نظروا نحوي نظرت إلى السقف

وتتعطّل لغة الكلام عند الوداع، ويشدو اسحق الموصلي بشعره قائلاً:

ولما رأينا البين جدَّ جده

ولم يبق إلا أن تبين الركائب

دنونا فسلمنا سلاماً مخالساً

فردَّت علينا أعين وحواجب

تصدُّ بلا بغض وتخلص لمحة

إذا غفلت عنا العيون الرواقب

أما المستعين بالله فكان يسكت عن الكلام مستعيناً بلغة الهوى والعيون كي تفصح عما يدور بينه وبين حبيبته من شؤون وشجون.

تكلم منا في الوجوه عيوننا
فنحن سكوت والهوى يتكلم
ونغضب أحياناً ونرضى بطرفنا
وذلك فيما بيننا ليس يعلم

أما التلعفري (1197م - 1277م) فيحوم حول نار الوجنات ويسكر من خمر اللواحظ حيث يقول[1]:

أدارت من لواحظها كؤوسا
فأنستنا السلاف الخندريسا
وأبدت خدها القاني فكنا
هناك لنار جنتها مجوسا
فلا والله ماسلبت عقولاً
لنا لكنها سلبت نفوساً

وقد يستدل بالنظر عن الضمير. ومنه قولهم «شاهد البغض اللحظ»[2]:

(1) - د. عمر موسى باشا - أدب الدول المتتابعة - ص438.
(2) - ابن عبد ربه - العقد الفريد - ج3 - ص68.

وقول زهير:

فإن تك في صديق أو عدو

تخبِّرك العيون عن الضمير

وقول ابن أبي حازم:

خذ من العيش ماكفى

ومن الدهر ماصفا

عين من لايحب وصـ

ـلك تبدي لك الجفا

ويقول عمر بن أبي ربيعة[1]:

وقلن: أهذا دأبك الدهر سادرا

أما تستحي أو ترعوي أو تفكر

إذا جئت فامنح طرف عينك غيرنا

لكي يحسبوا أن الهوى حيث تنظر

وما أجمل ماناجى به الشاعر علي الناصر عيني محبوبته لا لأنهما حوراوان دعجاوان بل لأنهما عميقتان بأسرار الحب[2]:

(1) ـ د. شكري فيصل ـ تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام ـ ص341.

(2) ـ خليل الهنداوي ـ السير الذاتية ـ ص169.

إني أشاهد في عينيك ماجمعت
هذي الطبيعة من إبداع فنان
ففيهما أقرأ الآيات مكتشفاً
سر الورى فهما وحيي وقرآني
ومنهما مصدر الإلهام يرفعني
على جناحيه فوق العالم الفاني
أطير في عالم الأحلام مبتهجاً
مجرّداً من تباريحي وأحزاني
فناظري وثني في تعبُّده
يرنو إليك بتقديس وإيمان

ويضطرم الشوق في غدير العين فيرى الدكتور إبراهيم ناجي[1] في عيني محبوبته بحراً وعاصفة وزورقاً يرتطم بصخور المجهول:

ياللغديرين في عينيك إذ لمعا
بالشوق يومض خلف الماء مضطرما
كأنني ناظر بحراً وعاصفة
وزورقاً بالغد المجهول مرتطما

وأين منه ذلك الحبيب الساهر الذي يعبق سحره كأنفاس الربا ويسرح طرفه كأحلام المساء:

(1) ـ أحمد المعتصم بالله ـ ناجي شاعر الوجدان الذاتي ـ ص66.

أين من عيني حبيب ساهر

فيه نبل وجلال وحياء

واثق الخطوة يمشي ملكا

ظالم الحسن، شهي الكبرياء

عبق السحر كأنفاس الربا

ساهم الطرف كأحلام المساء

مشرق الطلعة في منطقه

لغة النور وتعبير السماء

وهذا علي بن الجهم تفتنه العيون البغداديات فيقع في حبائل الهوى بفعل العين بين الرصافة والجسر:

عيون المها بين الرصافة والجسر

جلبن الهوى من حيث أدري ولاأدري

أعدن لي الشوق القديم ولم أكن

سلوت ولكن زدن جمراً على جمر

سلمن وأسلمن القلوب كأنما

تشكُّ بأطراف المثقَّفة السمر

خليليَّ ما أحلى الهوى وأمره

وأعرفني بالحلو منه وبالمرِّ

وقد تكون العين رقيقة بالفؤاد على حد تعبير أبي نواس:

وغرير الشباب محتبك الحسن
على جيده مناط التميم
فهو عفُّ الجفون في النظر العمـ
ـد حذاراً على فؤاد النديم

العين وحدها لها حياة، والقلب وحده له حياة، وقد تفرح العين والقلب يتألم.

يقول الشريف الرضي:

تَلَذُّ عيني وقلبي منك في ألم
فالقلب في مأتم والعين في عرس

كما أن العين تنطق، وتحدَّث الأحاديث الطوال؛ فهي تأمر وتنهى، وتعد وتؤمِّل ولكنها لاتفي:

وعد لعينيك عندي ماوفيت به
ياطول ماكذبت عيني عيناك

ولها دائرة استعلامات تتجسَّس لها على القلب، فتهتك ستره، وتذيع سره.

والشاعر حائر بينهما، متعجب منهما:

هامت بك العين لم تتبع سواك هوى

من علَّم العين أن القلب يهواك؟

والعين تبصر من الحجاز من في العراق، وترمي بسهام فتونها من ذي سلم فتصيب من في بغداد فتسبي وتصبي لاتمنعها شوامخ الجبال، ولاشواسع البيد.

سهم أصاب وراميه بذي سلم

من في العراق لقد أبعدت مرماك

والعين تحصي عدد شهدائها، وتسجل أسماء من تصيبهم سهامها، وتقرأ على الشاعر من وراء صاحبتها فيشهد جناية العين، ويقرر براءة الحبيبة؛ لأنها لاتدري ماجنت عيناها:

كأن طرفك يوم الجزع يخبرنا

بما طوى عنك من أسماء قتلاك

وحين تتلفت العين يتلفت القلب.

ولقد مررت على ديارهم

وطلولها بيد البلى نهب

فوقفت حتى لجَّ من لغب

نضوي ولجَّ بعذلي الركب

وتلفتَّت عيني فمذْ خفيت

عني الطلول تلفَّت القلب

في بحر عينيها يبدو الأمل أفسح من سطح المعمورة، ينتشر غوصاً في الماضي وتحليقاً في المستقبل حيث يقول أدونيس:

حينما أغرق في عينيك عيني
ألمح الفجر العميقا
وأرى الأمس العتيقا
وأرى مالست أدري
وأحس الكون يجري
بين عينيك وبيني

تتكشف حقائق الحياة الجميلة من قراءة أحاديث العين كما في قول النبي ﷺ: «عينان لاتمسُّهما النار؛ عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله».

والروعة في المجاز الذي ذكر العين نيابة عن الإنسان كله؛ فكأن الإنسان جُمِّع في عينيه عندما يجاهد، أو يتجه إلى الله مستغفراً متعبداً.

وكما تتصل سلامة عيني الفرد بعيني المجتمع فإن العين تتصل بالمعنى؛ ولذا يقرِّرون في قواعد الإعراب للبصر فعلين.

رأى البصرية؛ ورأى البصيرية أو القلبية.

ويظلُّ البصر على البصيرة؛ بل تتجلَّى البصيرة في البصر.

المحبة بصرية قلبية وكلية.

فمن باب العينين يتم الدخول إلى عالم القلب وبعدها يكون معراج

الوفاء المقدس إلى العين الصافية ينبوع الحب الأصغر.

عين الجسد الجميلة منطلق، وعين اليقين غاية.

وفي ساعة الحب تتحد العيون فتصير العين قلباً والقلب عينا.

العين كتاب كشّاف في مكتبة الوجه.

وخطاب العيون فنون على حد تعبير الدكتور أسعد علي[1]:

عيناك كتاب في آب

تنقلان البحر إلى الجبل

فأسبح في شاطئ الأمل

ياحبيبتي أحب أن أسمع منك نشيد الأناشيد

ونشيد الإنشاد، وأغنية الحب، وسورة مريم

وكل ماصبا إليه المحبون، وأنت تعرفين أنك تستطيعين

اختصار كل ذلك بنظرة عميقة زرقاء كالبحر والسماء..».

وفي عين العظيم تصغر العظائم كما يقول المتنبي:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم
وتأتي على قدر الكرام المكارم
وتعظم في عين الصغير صغارها
وتصغر في عين العظيم العظائم

(1) ـ د. أسعد علي ـ مسرح الجمال والحب والفن ـ ص159.

وقال جبران خليل جبران في كتابه المجنون[1]:

قالت العين يوماً لرفيقاتها «الحواس إنني أرى وراء هذه الأودية جبلاً مبرقعاً بالغيوم فما أجمله جبلاً».

فأصغت الأذن لحديثها ثم قالت لها:

«أين ذلك الجبل الذي تنظرين؟ إنني لاأسمع صوته».

ثم قالت اليد:

«أما أنا فعبثاً أحاول أن أشعر به أو ألمسه فليس هنالك جبل البتة».

وقال لها الأنف: «لاأقدر أن أشمه. ألا إن وجوده لمستحيل».

فتحوّلت العين إلى جهة أخرى ضاحكة في ذاتها.

أما الحواس الأخرى فعقدن مجلساً بحثن فيه عما دعا العين إلى مثل هذا الضلال.

وبعد البحث والتدقيق قررن بإجماع الآراء:

(إن العين قد خرجت ولاشك عن صوابها).

أما الأخطل الصغير شاعر الحب والشباب فيخاطب المحبوبة التي تربعت على عرش الجمال[2]:

الصبا والجمال ملك يديك

أيُّ تاج أعزُّ من تاجيك

(1) ـ المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران ـ ص38 ـ دار صادر بيروت.

(2) ـ ديوان الأخطل الصغير ـ ص34 و 45.

نصب الحسن عرشه فسألنا
من تراها له فدلَّ عليك
فاسكبي روحك الحنون عليه
كانسكاب السماء في عينيك

ويعاتب برفق قائلاً:

يا عاقد الحاجبين على الجبين اللجين
إن كنت تقصد قتلي قتلتني مرتين
تبدو كأن لاتراني وملء عينك عيني
ومثل فعلك فعلي ويلي من الأحمقين!!

ولكنها ظالمة لاترحم؛ فبكاء الشاعر يصل إلى حدود اليأس:

عش أنت إني متُّ بعدك[1]
وأطل إلى ماشئت صدَّك
ماكان ضرَّك لو عدلت
أما رأت عيناك قدَّك
وجعلت من جفنيَّ متكأً
ومن عينيَّ مهدك
وحياة عينك وهي عندي مثلما القرآن عندك

(1) ـ ديوان الأخطل الصغير ـ ص143.

ماقلب أمك إن تفارقها ولم تبلغ أشدَّك
فهوت عليك بصدرها يوم الفراق لتستردك
بأشدَّ من خفقان قلبي يوم قيل خفرت عهدك

والمحب لايستطيع لحبه كتمانا؛ لأن العين تفضح صاحبها. وعبث الهوى أقوى من الكتمان.

يقول الأخطل الصغير في قصيدته «عروة وعفراء» شارحاً قصة الطفلين العاشقين[1]:

وإذا التقى النظران تلمع أسطر
يعيا بحلِّ رموزها الولدان
حتى إذا كبرا تولّى شرح ما
لم يفهما قلباهما الخفقان
فإذا الوداد هوى وصادف تربةً
بكراً فطاب مغارساً ومجاني
ويح المحب إذا تملّكه الهوى
نمّت به عينان فاضحتان
عبثاً يحاول ذو الهوى كتمانه
عبث الهوى يقوى على الكتمان

(1) ـ ديوان الأخطل الصغير، دار الكتاب العربي، بيروت ـ ص289.

ويقسم الشاعر نديم محمد بعيني محبوبته مؤكداً التزامه وثباته على الوفاء والحب[1]:

لاوعينيك ماهجرت، ولا

ولا مرّ في ظنوني جفاء

أرجعتني إليك نفس لها الله

وعهد له عليّ الوفاء

أما الشاعر رفيق الفاخوري فيرى أنه كان يتخبط في الظلام على غير هدى إلى أن أطل شعاع النور من عينيها فاهتدى إلى الحب، وانجلت عنه الهموم والأحزان:

به أبصرت عيني ولم أك مبصرا

وهبّت رياحي وانجلت غمرة الكرب[2]

ولولا شعاع بين عينيه راعني

وشرّد عقلي مااهتديت إلى الحب

والأجمل من عينيها حب الشاعر سعيد عقل لعينيها[3]:

أجمل من عينيك حبي لعينيك

فإن غنّيتِ غنى الوجود

(1) ـ مجلة القيثارة، العدد 12 ـ ص9.

(2) ـ مصطفى طلاس ـ مختارات ـ ص498.

(3) ـ مجلة القيثارة ـ العدد 12 ـ ص3.

كنت ببالي فاشتممت الشذا

فيه، ترى كنت ببال الورود؟

وقد تذوّق الشاعر عبد الله الفيصل طعم الهوى بعد أن عاش زمناً هانئ النفس مطمئن البال.

فانقلبت حاله، لأن المحبوبة أصبحت شغله الشاغل يتلظى قلبه حباً وحنيناً، ومن بريق الشوق في عينيها يشعل نيران الحنين:

من أجل عينيك عشقت الهوى

بعد زمان كنت فيه الخلي

وأصبحت عيني بعد الكرى

تقول للتنهيد لا ترحل

من بريق الوجد في عينيك أشعلت حنيني

وعلى دربك أنّى رحت أرسلت عيوني

الرؤى حولي غامت بين شكي ويقيني

والمنى ترقص حولي على لحن شجوني

وفي تجربة الضياع لدى الشاعر عبد المعطي حجازي يواجه الشاعر كآبته بصمت، ويود لو يهرب إلى عينيها بعد أن فقد إيمانه:

من بعد أن فقدت إيماني، وصرت ملحدا

عيناك ملجأي الأخير
أمسح خدي فيهما
منتظراً نهايتي في بقعة الضوء المثير
عيناك عشب ندى
أفرش ظلي هنيهة ثم أواصل المسير
عيناك ياللكلمتين لم تقالا أبداً
خانهما التعبير حتى ظلّتا كما هما
راهبتين تلبسان الأسودا
تنتظران ليلة العرس سدى

إلا أنَّ عينيها غابة أحزان الشاعر، وقصيدته السوداء الرائعة ترتطمان بجدار الغربة الناهض رغم الوله العميق والتعشق، والتناهي في الحب:

فجأة صرنا غريبين وحيدين نثير الشفقة
تلتقي أعيننا حيناً وتشرد
ثم ترتد بلا ذكرى كأنا ماالتقينا

الخاتمة

هذه جولة واسعة في حدائق الشعر العربي قديمه وحديثه تتبعّنا فيها ماقاله الشعراء في وصف العيون وأفعالها وتأثيراتها وتعرّفنا على أساليبهم في التعبير عن الجمال ونظرتهم إليه في مختلف العصور.

وهذه هي صورة العين كما رسمها شعراؤنا على امتداد العصور معبرين عن تجاربهم وانفعالاتهم وإحساساتهم الجمالية. فهل حصل تغيُّر في الذوق العربي عَبر هذه العصور استجابة لحاجات جمالية جديدة عندهم، ولَّدتْها أنماط المعيشة، والتغيُّرات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وغيرها.

لقد اختلف الإنتاج الجمالي بمضمونه وبأبعاده عبر القرون. وربما نجمت المغالطة الكبرى في الأُطروحات النظرية الجمالية عَن مزج الأزمنة التاريخية المختلفة عند معاينة المنتجات الجمالية.

ومن الملاحظ أنَّ التواصل بين الماضي والحَاضر يتراوح مابين الاستفادة من قيم الماضي الجمالية، وتقديس الماضي لمجرد كونه ماضياً، وإقحامه في الحاضر كمثل أعلى جمالي.

وتبقى الصلة الفنية بالماضي من الصلات الهامة[1].

(1) ـ أطروحات جمالية ـ محمد الجندي ـ دمشق 1985.

وقد ساعد ذلك على احتفاظ اللغة بالكثير من موروثاتها القديمة، وعلى احتفاظ أدب اللغة بالكثير من النماذج الموروثة لكنَّ التطور بقي مستمراً عَبر التاريخ شكلاً ومضموناً.

إنَّ المعاني التي تعاقب عليها شعراء العصر الجاهلي في الحديث عن العيون وأوصافها متقاربة تشترك في الصورة الخارجية، حيث اعتمدوا على التشبيه والمقاربة وتداولوا ذكر عيون الغزلان والجآذر. وأعربوا عن رقة شعورهم وإحساساتهم بلغة عَذبٍ جرسها، حلوةٍ ألفاظها معتمدين على التشبيه الحسي المستمد من الحياة التي كان يحياها هؤلاء الشعراء الجاهليون ورقة الحياة الداخلية التي كانت تنطوي عليها نفوسهم. في الرقة يبدو الإحساس. وفي الخشونة تبدو الصورة الحسية التي تعكس ذلك الإحساس. وإذا تجاوزنا العصر الجاهلي إلى ماتلاه من عصور لاحظنا أن الذوق العربي الأصيل بقي محافظاً على ماكان عليه في السابق.

العيون السود الطبيعية هي التي انتشى العربي بلمحاتها، وتكحَّلت عيناه بلحظاتها الساحرة. فوضع لها الشعراء كياناً جمالياً متعدِّد المعاني والصفات، واتخذوه مقياساً للجمال.

أما اللون الأُزرق في العيون فكان علامة فارقة للأُعجمي ذمَّها الشعراء العرب ووصموها بالقباحة والحسد.

ولكن العيون الزرق أخذت تتكاثر بين مشاهير العرب في العصر العباسي الذي كان الكثير من الخلفاء فيه ينتمون إلى أمهات روميات وتركيات.

شبَّهوا زرقة العين بزرقة عتاق الطير، أو بزرقة حدِّ السيف لابزرقة السماء لأنَّ جمال غيوم السَماء في الصحراء يطغى على جمال الصفاء والزرقة.

ولذا تحوَّلت كراهية العيون الملونة التي سادت في عصور الجاهلية والإسلام إلى حب وإعجاب وخصوصاً في العصر الحديث الذي أصبح فيه حضور العيون الخضر والزرق واضحاً تزخر به روائع الغزل الحديث.

إنَّ الشاعر القديم كان يصف الأشياء كما تبدو لعينه. ولذلك جاءت صوره شكلية خارجية تعتمد على تسطيح الصور وعدم ربطها بجوهر الرؤية الانفعالية للحياة.

وهي أشبه ماتكون بزخارف الخاتم المحكمة الصنع نعجب بإتقانه ونتأمَّل دقة صياغته.

ولقد تطوَّرت الصورة في الشعر الحديث وانتقلت نقلة واسعة من المباشرة إلى الإيحاء. من المنظور المادي الشكلي إلى جوهر الرؤية الانفعالية العَميقة، وإلى الرحلة عبر الداخل، وماتعلَّق بها من تموُّجات نفسية نابضة بالانفعال ورنين اليأس، وألم الروح الرقيقة المتعطشة للنور والنقاء.

لقد جسَّدت الكلاسيكية العربية من خلال شخصيتها الغنائية الواحدة أصلاً والمتجدِّدة شكلياً عبر التاريخ وحدة التراث العربي على الصعيدين الفني والجمالي من جهة. وديمومة الإيقاع الغنائي العربي من جهة أخرى. وتلك أدَّت إلى نسف الحدود الزمانية والمكانية الفاصلة بين شاعر وآخر كامرئ القيس وجميل بثينة وابن زيدون ونزار قباني.

لقد امتدت الكلاسيكية الغنائية العربية لترصد تموُّجات العقل العربي، وأجواءه الجمالية ولم تتلكأ على عتبة الشعر العربي الحديث لتتجمَّد.

لقد كان الغزل في شبكة الصور الحسية للشعر التقليدي الشارة المميزة للتراث العربي. والغزل بالمعنى الحضاري رمز لتجدُّد الحياة وخصوبتها واستمرارها. إنه تفتُّح الذات الإنسانية على ما في داخلها وماحولها في اندفاع للأخذ والعطاء والتفاعل[1].

... وأخيراً لابد من الإشارة إلى أنَّ صورة العين أو مجموع الصور لاتشكل وحدها العمل الفني لأنها أجزاء من كلٍّ عَام ولابدَّ من ربطها بهذه الأجزاء، أو دراستها في ضوئها.

هذه دراسة انتقائية في رحاب أشعار ملأى بالحياة. كان فيها شعراؤنا العرب مبدعين في ابتكار المعاني وصياغة الألفاظ والتعبير عن المشاعر والأحاسيس وتذوُّق الجمال. ولذا خلَّفوا لأجيالهم وللأجيال اللاحقة تراثاً رائعاً في وصف العيون.

ومنذ البداية وضعت في حسباني أنه لابد من الوقوع في أخطاء كثيرة، لقد حزمت أمري مراتٍ عديدة وفي كل مرة كانت تتردَّد خطاي وكنت أشعر أنَّ فصولاً مازالت بحاجة إلى مزيد من الأناة، وأن بعض المواضيع مازالت تحتاج إلى كتاب كي تبلغ تكاملها.

ولكن هذا لم يمنعني من متابعة السير على هذه الطريق واضعاً نصب عيني أن أقدّم شيئاً في هذا المجال خير من ألا أقدِّم شيئاً على الإطلاق.

(1) ـ دراسات في الشعر العربي الحديث ـ اسطانيوس ميخائيل ـ ص181.

وإني لأرجو أن أكون قد قدّمت بعض العطاء وهذا حسبي.

لديَّ شعور طاغ بقدسية الكلمة

لذا نمت الخشية من أن أودع المطبعة ما قد يُضيع على الناس وقتهم، أو ما قد أشعر بعد زمن قليل بخفته، وأندم على إيراده ورحت أؤجل، ولكن إلى متى؟

لقد أدركت أنني لن أكون كاملاً أو قريباً من الكمال. ولكنَّ خطوة جدّية ومتواضعة تجعلني أعزز ثقتي بجدوى ما أقدِّم، وبأن الحياة سيرورةٌ نحو الكمال وليست وصولاً إليه.

مصادر الدراسة

1 ـ ديوان ابن الفارض ـ دار صادر ـ بيروت 1962
2 ـ ديوان أبي نواس ـ القاهرة ـ 1953
3 ـ ديوان الأخطل الصغير «الهوى والشباب».
4 ـ الأصمعيات ـ للأصمعي ـ دار المعارف بمصر ـ 1964.
5 ـ أطروحات جمالية ـ لمحمد الجندي ـ دمشق ـ 1985.
6 ـ ديوان الأعشى ـ دار الكاتب العربي ـ بيروت ـ 1983.
7 ـ الأغاني ـ لأبي الفرج الأصفهاني ـ دار صعب ـ بيروت ـ 1987.
8 ـ ديوان امرئ القيس ـ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ـ دار المعارف بمصر ـ 1969.
9 ـ أمالي المرتضى ـ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت.
10 ـ ديوان البحتري ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ 1987.
11 ـ البعد الجمالي ـ لهربرت ماركوز ـ ترجمة جورج طرابيشي ـ دار الطليعة ـ بيروت ـ 1979.
12 ـ تحفة العروس ومتعة النفوس ـ تحقيق خليل العطية ـ لندن ـ 1992.
13 ـ تطور الصورة الفنية في الشعر العربي الحديث ـ للدكتور نعيم اليافي ـ منشورات اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق.

14 ـ تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام ـ للدكتور شكري فيصل ـ مطبعة جامعة دمشق ـ 1964.

15 ـ الجامع لأحكام القرآن ـ للقرطبي ـ الدار الإسلامية ـ بيروت ـ 1987.

16 ـ الجمالية عبر العصور ـ لإتيان سوريو ـ ترجمة ميشال عاصي ـ منشورات عويدات (باريس).

17 ـ حب وبطولة ـ لسليمان العيسى ـ مكتبة الشرق بحلب.

18 ـ دراسات فنية في الأدب العربي ـ للدكتور عبد الكريم اليافي ـ مطبعة جامعة دمشق ـ 1972.

19 ـ دراسات في الشعر العربي الحديث ـ لامطانيوس ميخائيل ـ المكتبة العصرية (بيروت).

20 ـ الديوان الجديد لأمين نخلة.

21 ـ ديوان ديك الجن الحمصي ـ مجمع عبد المعين الملوحي ـ مطابع الفجر بحمص ـ 1960.

22 ـ زهرة الآداب وثمر الألباب ـ لأبي اسحق القيرواني ـ القاهرة ـ 1953.

23 ـ السيرة الذاتية ـ لخليل الهنداوي.

24 ـ ديوان الشعر العربي ـ لأدونيس ـ المكتبة العصرية ـ بيروت ـ 1964.

25 ـ شاعر وقصيدة (مختارات شعرية) ـ لمصطفى طلاس ـ دار طلاس.

26 ـ الشعر والشعراء ـ لابن قتيبة ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت 1981.

27 ـ شعر الهذليين ـ للدكتور أحمد زكي ـ دار الكاتب العربي 1969.

28 ـ شرح اختيارات المفضل ـ للخطيب التبريزي ـ دار الكتب العلمية ـ

بيروت 1987.
29 ـ الشوقيات ـ دار العودة ـ بيروت.
30 ـ طوق الحمامة ـ ابن حزم الأندلسي.
31 ـ طفولة نهد ـ نزار قباني.
32 ـ العقد الفريد ـ ابن عبد ربه الأندلسي ـ دار الفكر.
33 ـ علم الجمال «الاستطيقا» ـ دينس هويسمان.
34 ـ علم الجمال ـ محمد نظمي مساله ـ دار الفكر الجامعي.
35 ـ ديوان عمر بن أبي ربيعة.
36 ـ العين في الشعر العربي ـ الدكتور علي شلق.
37 ـ فقه اللغة وسر العربية ـ لأبي منصور الثعالبي.
38 ـ فكرة الجمال ـ هيغل... ترجمة جورج طرابيشي ـ دار الطليعة ـ بيروت.
39 ـ فن المتنجب العاني ـ الدكتور أسعد علي.
40 ـ في الأدب الأندلسي للدكتور جودت الركابي ـ دار المعارف بمصر ـ 1966.
41 ـ في أدب وطب العيون للدكتور عبد الرحمن البابا.
42 ـ في النقد الجمالي ـ للدكتور أحمد محمود خليل ـ دار الفكر ـ دمشق.
43 ـ الكشكول ـ لبهاء الدين العاملي.
44 ـ لسان العرب ـ لابن منظور ـ دار صادر ـ بيروت.
45 ـ المأدبة ـ لأفلاطون ـ باريس 1964.
46 ـ شرح ديوان المتنبي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ 1987.

47 ـ شرح ديوان مسلم بن الوليد ـ تحقيق سامي الدهان ـ دار المعارف بمصر ـ 1970.

48 ـ مجاني الأدب ـ للأب لويس شيخو اليسوعي.

49 ـ مجمع البيان ـ للطبرسي.

50 ـ المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران ـ دار صادر ـ بيروت.

51 ـ محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني ـ دار الجيل ـ بيروت.

52 ـ مدخل إلى فنون الجميل ـ لجيلسون ـ باريس ـ 1963.

53 ـ مسألة الحجاب ـ لمرتضى المطهري ـ الدار الإسلامية ـ بيروت ـ 1983.

54 ـ المستطرف في كل فن مستظرف ـ الأبشيهي ـ دار الجيل ـ بيروت ـ 1992.

55 ـ مسرح الجمال والحب والفن ـ للدكتور أسعد علي.

56 ـ مفاهيم علم الجمال ـ شارل لالو ـ باريس ـ 1952.

57 ـ ديوان النابغة الذبياني ـ تحقيق د. شكري فيصل ـ دار الفكر ـ بيروت ـ 1968.

58 ـ ناجي شاعر الوجدان الذاتي ـ لأحمد المعتصم بالله.

59 ـ النقد الأدبي «أصوله ومناهجه» لسيد قطب ـ دار الفكر العربي ـ 1952.

60 ـ النقد الجمالي ـ لأندريه ريشار ـ منشورات عويدات ـ بيروت.

61 ـ النقد الفني ـ لجيروم ستولينتز ـ ترجمة الدكتور فؤاد زكريا (المؤسسة العربية للدراسات والنشر).

62 ـ نزهة الألباب فيما لايوجد في كتاب ـ لأحمد التيفاشي ـ الريّس للكتب والنشر ـ لندن ـ 1992.

63 ـ يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ـ لأبي منصور الثعالبي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت.

المجلات:

ـ مجلة اللوتس ـ الأعداد: 65 ـ 66.

ـ مجلة القيثارة ـ العدد: 12.

ـ مجلة الموقف الأدبي ـ العدد 857 لعام 1975.

الفهرس

العيـون في الشعر العربي

«... في هذا الكتاب (العيون في الشعر العربي) للأستاذ محمد جميل الخطاب استعراض لما يتصل بالعيون في نسقين:

* نسق الجميل خلقاً وشكلاً وتشكلاً مادياً..

* ونسق الجميل إبداعاً واتساقاً وقيمة معنوية وروحاً مبثوثاً في صور الإبداع الفني والأدبي والفكري.

ولم يبخل الباحث بجهد في تقصّي المعرفة حول مواضيع تتصل بالبصر أو البصيرة لاستكمال بحثه. كما أنه عرج على أبواب أخرى في مجال المعرفة المتصل بالعين لغة ومدلولاً ودقة وصف وهوامش دلالية...

إنه كتاب يستحق القراءة، وجهد باحث يستحق الاهتمام، وموضوع يستحق الاستكمال، إذ لايبلغ الكمال إلا من هو الكمال بعينه..».

د. علي عقلة عرسان



دار الحوار للطباعة والنشر والتوزيع
سوريا - اللاذقية - ص.ب 1018 هاتف 422339